آية محمود يحيى

حَبيبي سلامٌ

رواية

تشكيل للنشر والتوزيع

ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

«3MR» عمرو

t.me/twinkling4

إهداء إلى

الشخص الوحيد الذي تمنيت لو يشاركني سماع أغنيتي المفضلة دون معرفة السبب، وإن كانت رغبتي هذه هي نهاية ما لم يبدأ فإنها تكفيني.

في قلبي لك الآن لحن جميل ووردة.

آية

6-10-2021

am 1:58

الفصل الأول

أرجوك.. اقفز من رأسي، أنت دائمًا هنا.

أحدهم ممسكًا بعنقي لا يدعني أذهب حتى وإن رآني جيفةً أمامه، يحزنني بقدر ما يخبرني أنه يحبني، يلهو بروحي وكأنها دميته.

في بادئ الأمر كنت أشفق عليه، كنت أخمد رغبتي في تركه، ولكن يبدو أنه قد جاء الوقت الذي سأنال فيه نصيب من اسمي، أريد أن أرحل.

رحيل تريد الرحيل.

رحيل باكية في مواجهة رجلٍ ما: طبعًا مش قادر تصدقني، مش عايز تصدق إني قدرت أحب، عيني قدرت تشوف راجل وتحس به وتتمنى قربه، وتستنى اللحظة اللي هيحس فيها بمشاعرها دي كلها. باعترف إني جبانة وما كنتش قادرة لا أواجهه ولا أواجهك باللي جوايا، بس أنا متأكدة إن هيجي اليوم اللي هاقول له فيه الكلام دا زي ما قُلته لِيك.

لو عايز تضربني اتفضل، عايز تموتني مش مهم، المهم إني ومن اللحظة دي عمري ما هاخاف تاني غير عليه.

وهنا تدخل صوت رامز المخرج قائلًا: Cut

- مبروك يا أساتذة، فركش.

- برافو يا غفران، أنا كنت خلاص بدأت أصدق إنك رحيل.

غفران: ما غفران هي رحيل ورحيل هي غفران، أنا الاتنين يا أستاذ.

رامز (ضاحكًا): أنا متفائل أوي بالفيلم، رغم كل اللي إحنا شُفناه ومتوقعينه، أنا واثق إن ربنا هيقف معانا.

غفران: وأنا كمان واثقة إن ربنا هيعوّض تعبنا كلنا، البركة فيك يا أستاذ.

رامز: البركة في شطارتك، دلوقتي بقى أقدر أقول لك استريحي زي ما إنتِ عايزة.

جاءت أسرار واقتربت من غفران قائلة: مش يلّا بينا بقى؟

غفران: دلوقتي؟

أسرار: دلوقتي.

غفران: بعد إذنك يا أستاذ.

ابتسم وأذِن لها بالانصراف، فانصرفت وسط مباركات من جميع أفراد العمل لها، ومن ثم اتجهت مع أسرار إلى سيارة سوداء ضخمة تحركت بهم لأحد المنازل القديمة بوسط البلد.

صعدت الدرج بترددٍ شديد، حاولت أسرار أن تزيل بعضًا منه بحركةٍ خفيفة منها على كتفها من حينٍ لآخر وكأنها تحاول ألا تتركها لعقلها، حتى وصلت لشقة في الدور السادس، فازداد ترددها وتلعثمت خطواتها، فدفعتها أسرار في اتجاه إحدى الغرف، وفور أن خطت غفران داخل الغرفة ألقت بنفسها على أقرب كرسي. لم تتأمل المكان كثيرًا وكأنها تعرفه جيدًا.

أسرار: لو عايزة ترجعي في كلامك إحنا لسا فيها.

غفران: لأ.. بس أنا خايفة.

أسرار: ما تقلقيش أنا معاكِ.

غفران: طب و....

قطاعتها أسرار قائلة: ما تقلقيش.

فأغمضت غفران عينيها قائلة: أنا جاهزة.

استيقظتُ ألتفت حولي لأتأكد من أن هذه الحياة ليست لي، فشخص مثلي لا يقوى على النظر لشيءٍ بسيط وهو في غير مكانه الصحيح، فماذا لو كان هذا الشيء هو «هو» بقلبه وجسده معًا؟

نهضت من سريري أبحث عن أسرار، الشخص الذي شاركني حتى في العالم الذي لا أعلم عنه شيئًا، كانت فيه الأقرب مثلما هي دائمًا، وربما هذا الشيء الوحيد الذي جعلني الآن مطمئنة، فمنذ وقتٍ طويل لا شيء يخيفني أكثر من أحلامي.

من غفران هذه؟ وما هذا الحلم الغريب الذي لا ينتهي أبدًا؟!

بعد بحثٍ ليس بالكثير عنها وجدتها تغني وهي تقوم بتنظيف حديقة المنزل مصطحبة معها «تانجو» كلبنا الحبيب.

أسرار: نموسيتك كحلي.

حاولت أن أجيبها ولكن لم أستطع، وكأن لساني قد سرقته الهرة كما يقولون.

أسرار (مقتربة مني): وشك مخطوف كدا ليه؟ ما تقوليليش إنك حلمتِ حلم من أحلامك العجيبة دي بتاعة كل يوم.

رحيل: تكملة الحلم اللي فات.

أسرار: لأ دا مسلسل بقى.

رحيل: لو أعرف مين غفران دي بس اللي مش سايباني في أحلامي، دي شبهي بالضبط، دي زي ما تكون أنا.

أسرار: إنتِ صدقتِ نفسك ولا إيه؟ لأ بصي حواليكي، لا إحنا في مصر ولا إنتِ الست هانم، دا إحنا في آخر بلاد الله.

ضحكت وأكملت: دا بلدنا بالمجمع كله مش على الخريطة أصلًا، وبعدين إنتِ خلصتِ من حلمك الأولاني علشان تجري على اللي أبعد وأصعب منه؟

وأشارت برأسها لـ«حسن» الذي ظهر إلى جوار منزلنا مع صديقته الصدوقة (كلبته شوربة).

رحيل (ناظرة لحسن وواضعة يدي على صدري في حركة لا إرادية مني): ما فيش أبعد ولا أصعب منه.

هززت رأسي في محاولةٍ مني لإفاقة نفسي قائلة: أنا لازم أشيل الموضوع دا من دماغي، واضح إنه عمره ما هياخد خطوة أو يتكلم، وكدا كدا أنا خلاص ما بقاش فارق لي. أنا محتاجة أركز في أي حاجة تانية.

وكأن قلبي يعي تمامًا إلى أي درجة أنا كاذبة، فاجأني بدقاته المعتادة فور أن شعر به يقترب في اتجاهنا. لم أحرك يدي من على صدري حتى لأرفعها مرة أخرى. لفتت أسرار انتباهي من قبل لهذه العادة المرتبطة لدي برؤيته قائلة: وانتِ فاكرة إنك لما تحطي إيدك على قلبك كدا مش هيحس بمزيكة حسب الله اللي شغالة جوّا؟ طب ابقي شوفي لك حاجة تداري بِها عينيكي كمان علشان خلاص بقوا فاضحينك.

حسن: كالعادة ما قدرتش ألحق شوربة.

أسرار: ما تقلقش عليها، هي وتانجو أصحاب إنت عارف.

حسن: أنا مش قلقان عليها والله خالص، بالعكس أنا متضايق من الإزعاج اللي كل شوية بتعمله لكم.

قامت أسرار بالضغط على يدي دون أن تشعره بذلك في محاولةٍ منها لجعلي أتحدث، لكنني لم أحرك ساكنًا.

أسرار: ما فيش أي إزعاج خالص، أهي بتلعب مع تانجو بتسلينا وبتسليه.

حسن: متشكر جدًا، بالمناسبة بالليل هيبقى فيه حكاية جديدة لكنوز في بيت الحاج حليم. أنا شُفتكم هناك الجمعة اللي فاتت، يا رب تكونوا اتبسطوا.

أسرار: أنا ما ركزتش أوي، اتلبخت مع البنات وحكاياتهم، بس رحيل كانت مركزة كالعادة، ما تقولي له رأيك يا رحيل.

نظر حسن لي قائلًا: استنيت تبعتي تقولي لي رأيك بس ما حصلش، سايبك براحتك بس علشان إحنا إجازة وما فيش حصص اليومين دول.. فهاعتبرك واخدة إجازة مني أنا كمان. المهم قولي لي إيه رأيك؟

رحيل: النهاية ضايقتني، بس مزيكتك كانت حلوة.

أجبته بهذه الجملة فقط بعد لحظاتٍ من الصمت حاولت خلالهم جاهدة السيطرة علي لساني الذي ظننته لن ينطق في وجوده مرة أخرى من كثرة ما تلعثم أمامه في أغلب محاولاتي السابقة للحديث معه، خاصة منذ أن عرفت أن ما في قلبي أصبح أكثر من كونه إعجابًا.

حسن: كنت فاكر إن النهاية هتكون مُرضية لأي بنت.

رحيل: لما يكون راح لها بمزاجه مش الظروف اللي أجبرته عليها.

حسن: وليه ما تقوليش إن الظروف ساعدته يفهم قد إيه هو محتاج لها؟

رحيل: أهو إنت قلت بنفسك.. محتاج لها، مش بيحبها.

حسن: الاحتياج جزء من الحب.

رحيل: وهي من حقها تعيش مع الراجل اللي تعبت وحاربت علشان تبقى معاه، حبها كله، مش جزء منه.

في هذه اللحظة لاحظت أن أسرار تبتسم وتُدلل قطة عبرت بالقرب منها وكأنها تصدق على ما قلته لها في السابق بأن هناك قطة تأتي وتسرق لساني كلما رغبت في الحديث معه في الفترات الأخيرة وتعيده مرة أخرى وقتما تشاء.. يبدو أنها تشكرها على إعادته هذه المرة باكرًا.

حسن: حاسس إنك متحاملة عليه قوي.

رحيل: بالعكس أنا متضايقة منها هي، ما فيش حد مضطر يرضى إنه يعيش نص الحدوتة مهما كان بيحب اللي قدامه. هي كانت بتحبه، بس هو كان محتاج لها، ودا ظلم ليها هي! الاحتياج عمره ما هيبقى سبب كافي إنهم يكملوا، هيجي وقت وكل المشكلات اللي حواليه هتخلص، وكل اللي بيحاربوه هيختفي، وكل الظروف اللي كانت في يوم من الأيام ضده هتتحل.. ساعتها احتياجه هيقل، وحبها هي أنا واثقة إنه هيبقى زاد. ساعتها إيه اللي هيجبره يكمل؟

حسن: إنه لما يعيش معاها كل دا يكون فعلًا حبها!

رحيل: احتمال وارد يحصل ووارد لأ، علشان كدا ما حبيتش

النهاية. ما فيش أي علاقة عمودها الأساسي احتياج فرد للتاني ممكن تستمر. إنت بتحتاج اللي إنت بتحبه، مش بتحب اللي هيساعدك ما تكونش محتاج.

حسن: في دي عندك حق.

رحيل: بجد مقتنع؟

حسن: مقتنع وهاطلب من كنوز تركز بعد كدا في نهايتها، واضح إن فيه ناس مركزة مش زي ما كنت فاكر أو قولي لها إنتِ، ما انتم خلاص بقيتوا أصحاب وبقيت أنا الغريب وسطكم.

ابتسم فابتسمتُ أنا أيضًا؛ ابتسامته دائمًا عزيزة، لذا شعرت بأنني فعلت شيئًا يستحق.

حسن: هاستأذن أنا، أشوفكم على خير.

أظنني رددت على جملته هذه بعيني لا بفمي، وفور أن ابتعد بكلبته أفاقتني ضحكة أسرار.

أسرار: العقدة اتفكت تاني ولا إيه؟

رحيل: باين كدا.

أسرار: لسا مُصرة تشيلي فعلًا الموضوع دا من دماغك؟

رحيل: آه.. بس شكلي هاسيبه في قلبي.

***

ذهبت ومعي أسرار وبعض فتيات القرية إلى منزل الحاج حليم في الساعة الثامنة مساءً، الموعد المخصص لحكاية نهاية الأسبوع التي ترويها كنوز فتاة حسن المدللة وابنته التي لا تحمل اسمه.

علاقة حسن بكنوز علاقة يصعب على أي شخصٍ تخيُّلها، ولولا أنني وقعت في فخ فهمها بشكلٍ خاطئ لما استطعت!

فلاش باك:

في اليوم التالي لانتهاء كل ثلث من الشهر، يذهب أحد مراكب قريتنا (سانتيا) الخاصة بالبضائع لجلب بعض النواقص من المجمع العام للقرى، الذي يبعد عنها مسافة ثلاث ساعات، من يريد شراء شيءٍ خاص كان عليه أن ينتظر هذه الأيام ليذهب هو أيضًا، حيث أن هذه هي وسيلة الانتقال الوحيدة من أيةِ قرية لأخرى داخل المجمع وإلى المجمع نفسه، فليس بإمكان أي مركبٍ صغير أن يسير في بحر قريتنا نظرًا لعمقه الشديد، ونوّاته المتكررة التي أودت بحياة الكثيرين من قبل، وعلى الرغم من التقدم الفني والعلمي لقريتنا، واستخدام أغلب سكانها جميع وسائل التكنولوجيا التي يعرفها العالم أجمع، إلى أنها تُعتبر منغلقة على ما بداخلها، فيصعب على أي شخصٍ نشأ بسنتيا أن يتركها ويذهب لأي بلدٍ أخرى.. فهي أشبه بعالم داخل العالم.. قد لا تحتاج أن تخرج منها لشهور بل أعوام.. ولكن الفضول البشري يدفعك أحيانًا إلى الرغبة في شراء بعض الأشياء، والتعرف على ثقافات وطباع سكان القرى الأخرى. لذا كنت أنا وأسرار دائمًا أول ركاب هذا المركب في الثلاث جولات من كل شهر.

في هذا اليوم وبينما أنا وأسرار في انتظار المركب نظرت لي مبتسمة وقالت: مش ناوية تقولي لي مين؟

رحيل: لما أتأكد هاقول لك.

أسرار: طب ليه عشمتيني إمبارح إنك هتقولي لي، أعرفه طيب؟

رحيل: أكيد تعرفيه، هو أنا أعرف أصلًا غير اللي إنتِ تعرفيهم؟

أسرار: طيب مين بجد؟

رحيل: GUESS أول حرف.

أسرار: هنلعب بقى!

رحيل: واحنا ورانا إيه يعني؟ ما نلعب.

في هذه الأثناء ظهر حسن ملوحًا بيدهِ لصديقهِ سليم الذي كان واقفًا إلى جوارنا، وفور أن لمحته أسرار قالت بصوتٍ مرتفع: (ح) أنا إزاي غبية أصلًا وصدقتك لما قلتِ إنك مش حاساه غير صديق وبس؟!

لا أعرف إن كانت قد رأت شيئًا جعلها تظن أن هو المقصود، أم أصابت الصدفة فمها فقط؟

وضعت يدي على فمها وأخذتها بعيدًا عن سليم الذي أخبره حسن بأنه سيذهب للحظات ويعود.

رحيل: وطي صوتك، تعالي.

أسرار: يبقى هو.

رحيل: أيوة، بس أنا خايفة، وخوفي زاد بعد ما إنتِ عرفتِ علشان أنا لا كنت عايزة أصدق إحساسي ولا أخليكي تصدقيه لما أحكي لك.

أسرار: طيب إنتِ اتأكدتِ إنه مش مرتبط؟

رحيل: ما أظنش، أنا مرة سمعته قال إنه كان.. بس دلوقتي ما

أعتقدش أبدًا إنه مرتبط.

في نفس اللحظة ولا أعلم إن كان ما حدث رسالة قدرية لإنارتي أو صفعة على وجهي لإفاقتي أم صدفة ليس إلا.. عاد حسن، ولكن ليس بمفرده، فقد كان مصطحبًا معه فتاة تسير إلى جواره بشكلٍ يجعلك تقول إنها حبيبته لا محال. ضحكت أنا وأسرار ضحكًا هستيريًا وكأننا رأينا مهرجًا.. مما جعل الأمر ملفتًا للانتباه، فرمقتنا الفتاة بنظرة ضيق جعلت أسرار ترغب في العراك معها، ولكن ما أنهى هذا الموقف هو وصول المركب.

ثمة شيءٍ ما يستقر في صدري الآن، أظنها اللعنة الكبرى التي تُسمى بـ «الغيرة»، الأمر الذي جعلني أصفع داخلي لشعوري بشيءٍ كهذا، من حسن؟! من هو؟ ومن أنا بالنسبة له حتى أغار عليه؟!

رجل مثل أي رجل، ربما لفتت انتباهي طريقته في الحديث، لبقاته، وأنه ليس فارغًا مثل البعض، ولكن الغيرة شيء آخر، وأنا لست بفتاة تغار على ما لا تملكه.

حاولت بشتى الطرق أن ألهي نفسي، واشتت تفكيري، واغض النظر عنه هو وفتاته، لكن دون جدوى، لم أتمكن حتى من أن أرفع نظري عنه وعنها، كنت أستنتج حتى الكلمة التي لم يتفوها بها.

وبمرور الوقت وبعد أن ساد الملل وجدته يرفع عوده ويبدأ في العزف، كانت تنظر له نظرة أعرفها جيدًا، نظرة كنت أنظرها أنا له كلما فعل شيئًا يبهرني. لست برحيل إن لم تكن هذه الفتاة حبيبته.

أظهرت فرحًا ومرحًا لم يكن أبدًا بداخلي، بل جلست بالقرب منه أصفق وأغني مع من حوله. الغريب في الأمر أن هذه الفتاة بين لحظة وأخرى كانت ترمقني بنظرة سيئة لم أفهم سببها، بلى أفهم..

أظن أن أيةِ امرأة لا تحتاج لأكثر من نظرة في عين أي فتاة لتعرف ما تحمله للرجل الذي تحبه! ربما كُشف أمري، ربما لست بارعة في التمثيل، ربما لا أجيد ادعاء ما لا أشعر به.

إنني أغار، أحترق، أمرض!! شخص مثلي إن أخفى ما بداخله فأخف ما قد يصيبه الإعياء!

في هذه اللحظة تيقنت جيدًا كيف بإمكان المرء أن يحترق كليًا وعلى شفتيه ابتسامة. كنت أراها تقترب منه فتزداد ضربات قلبي وتتسع شفتاي بابتسامةٍ أكبر أصطنعها. علاقة عكسية غير آدمية فرضتها على جسدي في هذا الموقف ولست نادمة.

أنظر إليها بين الحين والآخر وأشعر وكأن نظرتها تقول لي: هو لي، من أنت؟

يأتي شعور من داخلي الآن يدفعني إلى إلقاء نفسي في هذه المياه للتخلص من هذه الحرارة التي لم أعد قادرة على تحملها. أنهى عزفه فصفقت له هي بحرارة محبٍ جعلتني أشعر أن هذا التصفيق على قلبي، على قلبي مباشرةً، أكاد أختنق، هناك شعور سيئ أعطى قلبي قدمًا منذ قليل، سبقته رسالة تحذير تقول: ليس من حقك شيء، أي شيء.

مِلت برأسي على كتف أسرار وأغمضتُ عينيّ، فحركت يدها على ذراعي في محاولةٍ منها لطمأنتي، لم تكن تعلم أنها بهذه الحركة ستضغط بإبرة على بالون عيني فينفجر حاملًا سيلًا من الدموع. لم أستطع السيطرة على نفسي لوقتٍ أطول، لذا ابتعدت عن الجميع واتجهت إلى عنق المركب، لم أشعر ببرودة الجو التي جعلت الجميع يبتعد عن هذا المكان. جلست أبكي لوقتٍ لا أعرف إن كان طويلًا أم

قصيرًا حتى، كل ما أعلمه أنني إلى جوار أسرار، وهذا الشيء الوحيد الذي يطمئنني.

أسرار: ممكن تهدي؟ إنتِ ليه عاملة في نفسك كدا؟ أولًا إنتِ ما حبيتهوش يا رحيل، ثانيًا إحنا لسا مش متأكدين مين دي أصلًا!

رحيل: أنا كل اللي أنا فيه دا بسبب ضيقتي من نفسي! أنا ليه حاسة بكل دا؟! ليه بافكر فيه؟ وليه شاغلني؟ ليه حاسة إنه فارق لي؟ ليه غيرانة؟ وليه موجوعة؟ وليه تعبانة؟! أنا واثقة إني ما حبتوش، أنا لسا بحكّم معاه عقلي، أبقى لسا ما حبتوش. أنا لما باحب ما بافكرش وانتِ عارفة.. طب إيه اللي أنا حاساه دا؟!

أسرار: عاجبك، داخل دماغك، ودا مش عيب.

رحيل: لأ عيب، عيب لما أسيب نفسي لمشاعر ساذجة من غير ما أفكر حتى إن كان في حياته حد أو لأ. أنا سِبت نفسي إزاي ما اعرفش! أنا كنت فاكرة إن عينه بتقول لي حاجة، بس واضح إن كان بيتهيأ لي. أنا مش هاروح السنتر دا تاني، يا ريته كان باع نصيبه فعلا زي ما قال! يا ريته ما كانش رجع في كلامه! ويا ريتني ما عشّمت نفسي بأي حاجة!

أسرار: قررتِ إن كان بيتهيأ لك علشان شُفتيه مع واحدة! إنتِ مش واخدة بالك إنك مزوداها شوية؟ إحنا لسا ما نعرفش حتى دي مين.

رحيل: ما كنتش محتاجة أكتر من إني أشوفها جنبه، وأشوف نظرتها علشان أتأكد إنها بتحبه.

أسرار: أهو إنتِ قلتِ بنفسك، بتحبه، المهم هو بيحب مين؟ إنتِ

شُفتِ منه حاجة تقول إن فيه حاجة ما بينهم؟

رحيل: ما فيش حاجة واضحة، بس لما اختفت من قدامه، عينه كانت بتدور عليها.

أسرار: يا سلام! خليكِ نازلة بتانجو وخليه يغيب عن عينك ٣ دقايق وشوفي هتدوري عليه ولا لأ؟ فيه حاجة اسمها مسؤولية يا رحيل، ودا راجل، ودي واحدة ست ومعاه وفي مكان غريب، طبيعي يخلي باله منها. الأهم من كدا بقى وبمناسبة المكان الغريب.. البنت دي واضح إنها غريبة عن البلد، وأنا ما أظنش إنها بنت أي حد من اللي نعرفهم، فتفتكري كانت فين بقالها ١٠ أيام من آخر مركب رجعت من المجمع؟!

رحيل: قصدك كانت قاعدة عنده؟

شعرت أسرار في هذه اللحظة أنها بدلًا من أن تُحمص العيش قد أحرقته.

أسرار: عكيت.. عكيت.

رحيل: بالعكس إنتِ عندك حق، وأنا مش هاوجع قلبي بأسئلة عمري ما هالاقي لها إجابة، أنا كل اللي أقدر أعمله دلوقتي إني أشيل الموضوع من دماغي، وأهي فرصة إننا نازلين المجمع، نلف شوية ونعمل أي حاجة تغيّر مود. أنا مش عايزة حتى الاسم دا يعدي على عقلي مرة تانية.

أسرار: المهم إنه ما يعديش على قلبك يا رحيل.

رحيل: مش هيعدي، وأنا أول ما أرجع هاقول له يشوف حد يشيل حصص الإنجليزي مكاني، أنا مش هاكمل في المكان دا، أنا مش

هاسيب نفسي وألاقيني فجأة باحبه.

ظلت أفكاري تعبث معي حتى وصلنا، فأسرعت إلى خارج المركب حتى لا أراه ممسكًا بيدها بينما يحاول مساعدتها. حاولت أن أخفف عن نفسي قسوة الأشياء البسيطة التي ترسمها أفكاري، وأظنها ستزيد من تعبي.

أرهقت نفسي بقدر المستطاع في شراء الأشياء لعلني أزيحه بعيدًا، وكلما حاولت إزاحته بعيدًا عن رأسي ظهر أمامي شيء يذكرني به، كأنه يقول: لا تحاولي عبثًا.

في الوقت المحدد لرجوع المركب كنت أقف وإلى جواري أسرار، وبعد دقائق لاحظنا اقتراب حسن الذي اتجه إلينا ولكن دون الفتاة.

حسن: واضح إنكم اشتريتوا حاجات كتير.

أسرار: احتمال ما ننزلش مع المركب الجاية، فقلنا نجيب كل اللي ناقصنا المرة دي.

حسن: كويس والله، على فكرة يا رحيل أنا لاقيت بيدج حلوة أوي هتعجبك، تعالي أوريكي.

رحيل: ورِيني.

ثم اقتربت منه لأرى، وقبل أن يفتح هاتفه ابتسمت ابتسامة صفراء قائلة: هاجيب آيس كريم وأرجع لكم.

وانصرفت متحججة ببائع الأيس كريم الذي كان يقف على مسافةٍ منا، فسرت في اتجاهه، وأثناء انصرافي لاحظت أنه أدرك أن ثمة شيء ما بي، الأمر الذي جعلني أرى من بعيد نظرة إحراج في عيني أسرار، ربما لأنها تقدّره جيدًا.

لم أستطع، لم أستطع أن أقف على مقربةٍ منه وأبتسم وبداخلي يحترق، يكفي ما قمت بإظهاره من مشاعر باردة إلى الآن، فلو تركت الأمر لما أشعر به، لوقفت أمامه وسألته من هذه؟ ولمَ كانت تنظر لك هكذا؟ هل تشعر بشيءٍ ما تجاهها؟ أجب أو اتركني بمفردي لأحترق في صمت.

لا تقترب مني، لا تقترب أبدًا.

صعدنا إلى المركب وكنت أتجنب دائمًا النظر إليه، الجلوس على مقربةٍ منه، وأقلل بقدر المستطاع كلماتي إن وجه لي أي سؤال، وهو كثيرًا ما كان يحاول القيام بذلك، واليوم بالتحديد ولا أعرف لهذا سببًا!

بالنظر لحالته هذه تظنه إما ساذجًا لدرجة سيئة أو أكثر دهاءً مما أظن، وأظنه ليس بساذج أبدًا! لأنني بطبعي لا أميل إلى هؤلاء، وأرى أنني أميل له، أميل كثيرًا لدرجة تشعرني بأنني وقعت في بئرٍ لن أنجو منه أبدًا اسمه «عينيه.

وصلنا إلى المنزل بعد عناء، وسقطت مريضة في الفراش، ارتفعت حرارتي والتوت أمعائي، وانطفأت لمعة عينيّ التي كان باستطاعتها إنارة القرية في الأيام السابقة.

في هذا اليوم تلقنت درسًا بعنوان: ليس لك ولن يصبح.

استيقظت في صباح اليوم التالي متخذة عدة قرارات أهمها أن لا مكان لمشاعري البلهاء هذه بعد اليوم، وأخذت أعيد على أسرار هذه القرارات مرارًا وتكرارًا حتى ألقتني بلوح ثلجٍ أطاح بكذبي عليها أرضًا.

أسرار: ودا بعد إيه بقى؟ بعد ما فضلتِ طول الليل بتحاولي تلاقي دليل واحد يأكد لك إن فيه حاجة ما بينهم وما لقتيش؟ واخدة موقف منه ولا منها ولا من مشاعرك؟ رحيل لو حاسة حاجة ناحية حسن فلازم تكوني قدها، إنتِ مش صغيرة علشان تخافي من علاقة إنتِ حتى ما جربتيش تدخليها. مش باقول لك سيبي نفسك وحبيه، بس باقول لك إِدي لنفسك فرصة حتى تفهمي نفسك ومشاعرك وتشوفي هتاخدك لفين، بلاش تكشي كدا.

ثم أكملت بنظرة مليئة بالخبث رافعة حاجبها الأيسر: وانجزي احكي لي عرفتِ عنها إيه؟

رحيل: اسمها إيمان، عندها ٣٢ سنة، يعني أكبر منه ب ٣ سنين، عندها محل بيبيع آلات موسيقية، ومن وقت للتاني بيعمل كورسات تعليم مزيكا، حسن من كام شهر إِدى هناك كورس عود مدته ٥ أيام. مش عنده على الفيس بوك رغم إنها ACTIVE عليه طول الوقت، بس عنده على انستجرام، ما بينهم أصحاب مشتركين كتير، بس واضح إن علاقتهم مش قوية. بصراحة بدأت أشك إن ما فيش حاجة ما بينهم.

صمتت أسرار للحظات وعلى وجهها علامات اندهاش كبيرة.

أسرار: خسارة! فيه معلومة ما قدرتيش تعرفيها.

رحيل: إيه؟

أسرار: مقاس رجلها، إيه دا مخابرات؟! عرفتِ كل دا إزاي وإمتى؟!

رحيل: إنتِ عارفاني لما باحط حاجة في دماغي. كان عندي فضول بس أعرف ذوقه مش أكتر.

صمتت للحظات ومن ثم أكملت رحيل: وآه على فكرة.. مقاس رجلها ٣٩.

***

بينما أنا في طريقي في زيارة إلى مكتبة القرية، صادفت شوربة في الطريق، جرت نحوي فانحنيت لأداعبها.

رحيل: أهلًا أهلًا يا ست شوربة، والله فيكي الخير.

مددت يدي في شنطتي وأخرجت أحد الأكياس الصغيرة التي أملأها بين الحين والآخر بطعام من الذي أعده لتانجو من أجل كلاب الشوارع المحيطة بنا، فعلى الرغم من طيبة أهل قريتنا إلى أنني ما زلت أجد صعوبة في إقناعهم بأن حيوانات قريتنا أيضًا لها في رقبتنا حقوق.

بدا الفرح على شوربة فور رؤيتها لكيس الطعام، فهي تعرفه جيدًا وتتقاسمه يوميًا مع صديقها.

لحظات ووجدت حسن أمامي ينادي عليها، ابتسم حسن فور رؤيتي قائلًا: كالعادة طبعًا.

رحيل: وكالعادة هاقول لك إني باتبسط بدا.

حسن: ماشي يا ستي.

قبل أن ينطق بكلمة أخرى قاطعته قائلة: يلّا باي باي.. أشوفك على خير. وانصرفت.

أكثر شيء أظنه مزعجًا للإنسان، أن يكون مجبرًا على سماع صوت عقله وإطاحة رغمًا عنه الصوت الذي يأتي من داخله، فلو تركت

الأمر لداخلي الآن لأكملت حديثي معه وتمنيت أن يستمر إلى الما لا نهاية وما بعدها، لتمنيت أن أنظر في منتصف عينيه، أتوه فيهما، وأقرأ كل ما أريد معرفته رغمًا عنه وعني، أستمتع بحديثه وكأنه يومي الأخير معه، لرغبت في أن آخذ له صورة مثلما أفعل دائمًا مع كل وأي شيءٍ أحبه.

أحبه؟ كبيرة هذه الكلمة، فلتكن «يعجبني».

مثلما أفعل دائمًا مع كل وأي شيءٍ يعجبني، وهو أكثر ما يعجبني الآن ودائمًا! ولكن لنعود إلى أرض الواقع، كل هذه الأماني تركتها خلفي الآن ومضيت.

***

بدلًا من أن أتجه إلى المكتبة وجدت قدماي تأخذانني إلى مكان العم غانم، صاحب أهم محل أدوات مكتبية بقريتنا.. أحبه كثيرًا وأحب حديثه، ودائمًا ما أذهب إليه لأنفّس عمّا بداخلي، فما يرويه يبعث البهجة والراحة لقلب من يستمع له مهما كثرت أحماله.

وصلت إلى هناك لأجد الشخص الوحيد الذي تمنيت ألا أراه ثانيةً في حياتي، فتاة حسن، فتاة المركب، الفتاة التي اختار قلبي عدم محبتها دون أن أي ذنبٍ منها.

رمقتني بالنظرة ذاتها فور رؤيتها لي، أو ربما كان يُخيل لي ذلك، فكما يقولون (على راسي بطحة)؛ فلم أندهش.

ابتسمت إلى العم غانم ابتسامة تخبره بوصولي، وجلست على أريكته المعتادة، أنتظر بفارغ الصبر أن تنتهي من شراء ما تريد وتذهب من أمام عيني، ويبدو أن صدفة اللقاء قد صعقتني للدرجة

التي جعلتني أتجاهل السؤال الأهم: كيف جاءت إلى قريتنا وهي لم تصعد إلى مركب البضائع أثناء عودتنا أمس؟!

لم يتركني العم غانم لرأسي طويلًا، فسرعان ما أنهى ما كان يفعله، وفور انصراف الفتاة جلس إلى جواري متغزلًا بي كما كان يفعل دائمًا.

غانم: مال الجميل دبلان؟

رحيل: للدرجة دي باين عليا؟

غانم: ما قلت لك قبل كدا، عيونك مراية اللي في قلبك، ودا أجمل ما فيكي.

رحيل: طب ما تقول لي اللي في قلبي يا عم غانم، يمكن لو اتأكدت منه أرتاح.

غانم: بس كلام القلب ما بيتقالش.

رحيل: ولا بيتعاش، زي ما يكون بس اتوجد جواك علشان يحيرك ويخليك لا فاهم نفسك ولا فاهم اللي قدامك، ويفضل في الآخر كلام.. كلام وبس.

غانم: هتفضلي تكلميني بالألغاز، ولا هتحنّي عليا وتحكي لي حدوتة الشاطر حسن اللي كل يوم تيجي ترمي لي منها حتة؟

ظهرت على وجهي علامة تعجب كبيرة، ازدادت بتأكيده إنه لم يذكر الاسم بالصدفة.

غانم: مش حسن بردو؟

رحيل: عرفت إزاي؟

غانم مبتسمًا: من المراية.

مرت عدة ساعات وأنا أروي للعم غانم الحكاية كاملة، لقائي الأول بحسن بعد استقراره في القرية مباشرة، مساعدته لي في الوصول إلى تانجو فور اختفائِه ليلة العيد الماضي، المكتبة ولقاءاتنا التي تعددت بعد ذلك، والتي كانت جميعها بترتيب من القدر، طلبه أن أقوم بالتدريس في المركز التعليمي الذي يملكه، خاصة بعد معرفته بنبوغي في مادة اللغة الإنجليزية، دروس الموسيقى والصيد.. وأخيرًا فتاة المركب وما حدث أمس. وهنا فقط أوقفني العم غانم لأول مرة.

غانم: تقصدي الدكتورة إيمان؟

رحيل: اللي كانت هنا من شوية، هي دكتورة؟

غانم: أيوة.. الدكتورة اللي بتعالج كنوز.

رحيل: كنوز! مين كنوز؟

غانم: إزاي بتحبي حسن وما تعرفيش مين كنوز؟!

رحيل بانفعال: أحب إيه بس يا عم غانم؟ والنبي ما تخضني، أنا أصلًا مش عارفة أتلم على نفسي.

ضحك غانم قائلًا: طب خلاص خلاص.

رحيل: مين بقى كنوز؟

غانم: بنته.

نهضت من مكاني واضعة يدي على صدري.

رحيل: بنته!! هو كمان متجوز؟

ضحك غانم مرة أخرى قائلًا: قصدي زي بنته، هو اللي مربيها من وهي صغيرة، أمانة صديق عمره اللي سابها في رقبته من وهي حتة لحمة.

رحيل: بس أنا ما شُفتهاش ولا مرة طول الفترة اللي فاتت، هي كانت فين؟!

غانم: ما هي ما بتخرجش من البيت، بتتعالج.. الدكتورة إيمان بتعالجها، والحمد لله ربنا قرب يتم شفاها على خير.

رحيل: هي عندها إيه؟

غانم: اللي أعرفه إنها وقعت واقعة صعبة على ضهرها من لما كان عندها ١٠ سنين كانت مخلية حركتها على قدها، ومن وقتها لحد السنة اللي فاتت كان صعب تعمل العملية الوحيدة اللي كانت تخليها ترجع تمشي طبيعي من تاني لإن حالتها ما كانتش تتحمل، لحد ما ربنا كرمهم بالدكتور خالد أبو الدكتورة إيمان وعمل لها العملية اللي نجحت بفضل ربنا وكرمه، والدكتورة إيمان بتيجي كل يوم في المركب الطبي علشان تتابع معاها جلسات العلاج الطبيعي.

رحيل: يا حبيبتي! ربنا يتم شفاها على خير يا رب.

غانم: حتة بنت زي البلسم، تتحط ع الجرح يطيب، لو شُفتيها أنا عارف إنك هتحبيها، عيونها مراية زي عيونك.

رحيل: وانت بتشوفها فين يا عم غانم؟ مش بتقول إنها ما بتخرجش؟

غانم: أيوة، ما أنا باروح لها البيت، حسن طلب مني إني أذاكر لها علشان بتدلع عليه وما بتذاكرش لما هو اللي بيعمل كدا.

رحيل: طيب ممكن أبقى آجي معاك أشوفها، ولا تفتكر حسن يتضايق؟

غانم: ما أظنش هيتضايق، بالعكس، دا حزين على حالها، ودايمًا حاسس ناحيتها بالذنب.

رحيل: ليه كدا؟

غانم: علشان أخدها من وسط أصحابها وجيرانها اللي في المجمع، وجه بها على هنا بعد ما ورث نصيبه في المركز من عمه الله يرحمه، ولنفس السبب دا هو مُصر إنها تكمل تعليمها، وبيذاكر لها بإيده وأسنانه. دا بيسيب حاله ومحتاله وبيقعد بها في المجمع كل سنة طول فترة الامتحانات.

ابتسمت ابتسامة أظن أن العم غانم أدرك معناها جيدًا.

غانم: إيه رضيتِ عليه، ولّا حسيتِ إنه راجل وما تطلعش منه العيبة؟

رحيل: إنه يحس بمشاعر ناحية واحدة تانية دي مش عيبة منه يا عم غانم، المشكلة فيّا أنا، هو ما لوش ذنب في مشاعري.

غانم: واللي حسيتيه منه ووصلك؟

رحيل: يمكن كان بيتهيأ لي.

غانم: ما فيش ست بيتهيأ لها حاجة ما حصلتش إلا لو كانت قاصدة تضحك على نفسها، وانتِ مش من دول يا بنتي، حسيتِ إن فيه حاجة يبقى صدقيني فيه حاجة، ما تدخليش دوامة جلدك لنفسك وحكمك عليها، وما تسيبيش عقلك يهيأ لك إن مشاعرك كانت

من طرف واحد غير لو سمعتيها منه هو شخصيًا، وأقول لك حتى لو سمعتيها ما تصدقيهاش، صدقي بس اللي يجي من قلبك.

رحيل: أنا حتى مش عارفة أسمع قلبي بيقول لي إيه يا عم غانم، أنا خايفة أكون حبيته.

غانم: وأنا خايف تندمي لو ما حبيتيهوش.

رحيل: أنا هاندم لو سِبت نفسي واتخذلت.

غانم: وهتندمي أكتر لو جه اليوم اللي اتأكدتِ فيه إنك ظلمتِ نفسك وانتِ فاكرة إنك بتحميها.

رحيل: بس إيمان شكلها بتحبه يا عم غانم.

ابتسم عم غانم قائلًا: المهم هو بيحب مين؟ ما تشليش ذنب إنك تحرمي حد من الإجابة عن سؤال مهم زي دا وتخلي ظنونك تجاوبك عليه باللي تريحي به عقلك وتوجعي به قلبك. سيبي الأيام تجاوبك يا بنتي.

(المهم هو بيحب مين؟) لثاني مرة على التوالي أستمع إلى هذه الجملة، فابتسمت ونظرت إلى السماء وكأنني أرجو من الله أن تكون إجابة هذا السؤال يومًا ما كلمة واحدة.. (رحيل).

بعد عدة ساعاتٍ من حديثي مع العم غانم الذي أخذتني قدماي إليه دون أيةِ دراية مني، لأجد لديه إجابة عن أغلب الأسئلة التي كانت تدور في رأسي، بل وتلك التي لم أتطرق حتى لسؤالها. اتجهنا سويًا إلى منزل حسن، حسن وكنوز.

دق العم غانم الباب ثلاث دقات، ومن ثمّ أخرج المفتاح من جيبه قائلًا: أنا حسن سايب لي المفتاح، بس حُرمة الدار بردو.

فتح العم غانم الباب لنجد خلفه فتاة في السابعة عشر من عمرها، جميلة بقدر الخجل الذي يتطاير من وجهها وتشعر به من خلال حركات يدها المضطربة، حنطية البشرة، بشعر بني، وعينان تشبهان الشمس لحظة فراقها، آية في الجمال رغم بساطة ملامحها، عذباء تمامًا كالماء، تدخل قلبك مباشرةً دون أن تُلقي عليك السلام.

كانت تلهث وهي تستند على عكازٍ خشبيّ، كانت تحاول أن تسرع به من خطواتها لتفتح لنا الباب.

ابتسمت كنوز قائلة: أهلًا يا عم غانم.

غانم: أهلًا يا بنتي، إزيك النهاردا؟

كنوز ناظرة لي: الحمد لله في نعمة. أهلًا بكِ إزيك؟

رحيل: الحمد لله، إنتِ عاملة إيه؟ سلامتك.

كنوز: بخير الحمد لله.. الله يسلمك، اتفضلوا.

ومن ثمّ أشارت لنا باتجاه حديقة المنزل، وفور أن وصلنا إلى المنضدة التي كانت تتوسط الحديقة وجلسنا، وجدت شوربة تقترب مني فرحة وتلتصق بقدمي.

رحيل: أهلًا أهلًا يا ست شوربة.

كنوز: إيه دا إنتِ تعرفي شوربة؟

رحيل: الصديقة الصدوقة لتانجو الكلب بتاعي.

كنوز: إيه دا إنتِ رحيل؟

ابتسمت مندهشة قائلة: إنتِ تعرفيني؟

كنوز: أيوة طبعًا، حسن كلمني عنك كتير قوي، بجد كان نفسي أشوفك.

سرعان ما شعرت بحرارة وجنتيّ وظهرت على وجهي علامات الدهشة والفرحة في آنٍ واحد، حسن يتحدث مع وحيدته عني؟

نظرت للعم غانم لأجده ناظرًا لي مبتسمًا هو أيضًا. أحست كنوز أنها قالت شيئًا لم يكن عليها قوله، لذا حاولت أن تصحح الأمر سريعًا.

كنوز: وكلمني كمان عن أسرار وتانجو، وسألته ساعتها ليه سمّوه تانجو؟ وقعد يفتي طبعًا إنه على اسم الرقصة، بس أنا حسيت إن وراه حدوتة. كان عندي فضول أعرفها.

رحيل: هو فعلًا على اسم الرقصة، بس بردو وراه حدوتة. إيه رأيك أحكيها لك وتحكي لي إنتِ كمان حدوتة شوربة؟ أنا فضولي من أول ما سمعت اسمها ما يقلش أبدًا عن فضولك.

كنوز: بس كدا؟ شوفي يا ستي....

وقبل أن تكمل كنوز كلمتها قاطعها العم غانم قائلًا: لأ باقول لك إيه إنتِ وهي نخلص الدرس الأول وبعدين تبقوا ترغوا براحتكم.

كنوز: يا عم غانم يعني هو الدرس هيطير؟

غانم: لأ أنا اللي هاطير أول ما المغرب يأذن، فنخلص الدرس وهاسيبكم أنا وأتكل على الله واحكوا ساعتها في اللي انتوا عايزينه.

نظرت لي كنوز قائلة: هتستني معايا؟

أجبتها أنا أيضًا بابتسامة: هاستنى.

وأثناء شرح العم غانم الدرس لكنوز، تحدثت مع أسرار وأخبرتها أنني بمنزل حسن، الأمر الذي أعلم جيدًا كيف أثار فضولها وقلقها أيضًا، ولكن سريعًا ما سيطرت على ذلك وطمأنتها بقدر ما استطعت، ومن ثمّ اتجهت إلى المطبخ لكي أعد فنجان قهوة للعم غانم بناءً على طلبه، وبينما كنت أقوم بإعداد القهوة وقعت عيناي على كاست قديم بعض الشيء، وإلى جواره شرائط كثيرة جميعها لفيروز، اخترت من بينهم أغنيتي المفضلة لها وأدرته.

(أنا لحبيبي وحبيبي إلي، يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي، لا يعتب حدا، ولا يزعل حدا، أنا لحبيبي وحبيبي إلي).

وبينما كنت أتراقص وأنا أغني معها سمعت صوت حسن آتيًا من الخارج، فاعتدلت.

صوت حسن: يا كنوز أنا مش قلت لك مية مرة ما تقربيش من الشرايط وكفاية اللي باظ منها؟

مع كلمته الأخيرة هذه كان قد وصل إلى المطبخ وحلت الدهشة والخجل محل الغضب على وجهه فور أن رآني.

حسن متخبطًا: أنا آسف، أنا كنت فاكر إن... كنوز كانت....

توقف لحظات من أجل إزاحة تخبطه جانبًا ثم قال: إزيك يا رحيل؟

رحيل: إزيك إنت يا حسن؟ أنا كويسة. أنا آسفة أنا اللي شغلت....

قاطعني حسن قائلًا: آسفة على إيه بس؟ براحتك، أنا افتكرت كنوز بس اللي عملت كدا، لإن كل مرة بتستخدم فيها الكاست بتبوظ

لي شريط من الشرايط دي، وأنا ما صدقت إني جمعتهم.

رحيل: شكلك بتحب فيروز قوي.

حسن: ومين ما يحبش فيروز؟ أنا فيروز بالنسبة لي حالة خاصة، تتسمع في أي حالة وكل وقت.

ابتسمت والتفتُ إلى القهوة التي كادت تفور، وبينما كنت أضعها في الفنجان لمحت في عيني حسن أكثر سؤال منطقي منعه خجله من سؤاله: (ماذا تفعلين في مطبخ بيتي؟)، رحمت خجله وبينما كنت أحمل فنجان القهوة وفي طريقي إلى خارج المطبخ أجبته دون أن أنظر له.

رحيل: أنا جيت مع عم غانم، كلمني عن كنوز وحبيت أشوفها.

لم أنظر لأرى ردة فعله، وبينما كنت في طريقي إلى الحديقة حاملة القهوة لمحت على مكتبةٍ جانبية الكثير من أعداد ميكي؛ لم أشعر بنفسي حينها، صرت طفلة فجأة ووضعت القهوة جانبًا واتجهت إليها ومن خلفي حسن.

التقطت بعضًا منها ونظرت لهم فرحة، ومن ثم نظرت إلى حسن.

رحيل: الله! إيه دا؟

حسن: بتحبيه؟

رحيل: قوي! إزاي الأعداد دي لسا موجودة؟

حسن: من وأنا عيل صغير وأنا غاوي أجمعهم، كنت باحوّش مصروفي كل أسبوع علشان أقدر أشتريهم.. لحد ما بقت عادة، كل ما بحس إني زهقان، مخنوق، أو مش لاقي حاجة أعملها باقعد أأقرأ

فيهم. على فكرة إنتِ ممكن تاخدي منهم اللي إنتِ عايزاه.

رحيل فرحة: بجد؟ عمومًا أوعدك إني هاقراهم وأرجعهم على طول.

حسن مبتسمًا: ولو ما رجعتيهمش خالص فداكِ يا ستي، دا حتى يبقى يا بختهم.

أظن أنه سرعان ما ظهرت علامات الخجل على وجهي، فحاولت جاهدة إخفاءها، وقمت بتغيير الموضوع، ويا ليتني ما فعلت!

رحيل: بس إنت غريب قوي يا حسن؛ صاحب سنتر تعليمي، معلم أجيال يعني، بتلعب المزيكا، وبتعزف على العود، بتحب ميكي ماوس، وبتسمع فيروز، مش تركيبة غريبة شوية؟

حسن: بس ممتعة شويتين.

ثم أكمل بابتسامة صفراء بعض الشيء: بس تصدقي إني ما أخدتش بالي إن فيه حد ممكن يكون مركز إني باعمل كل دا.

شلال ثلج سقط على راسي الآن! تلعثم لساني ولم أتمكن من الرد، ولكن أنقذني نداء العم غانم.

صوت غانم: كل دا بتعملي القهوة يا رحيل؟

فنظرت لحسن وأشرت بيدي للقهوة، فرمقني بابتسامة صفراء أخرى، فبادرت بالانصراف، حملت القهوة واتجهت إلى الحديقة ووضعتها أمام العم غانم، الذي وضعها على فمه مباشرة: مالها باردة ليه كدا؟

في هذه اللحظة انضم حسن إلينا، فنظر إليه العم غانم وابتسم

كأنه أدرك أنه السبب في احتسائِه لقهوته باردة، فرمقني بنظرته المعتادة، وارتشف منها مرة أخرى.

غانم (مبتسمًا): وماله نشربها باردة ما يضرش.

تبادل العم غانم وحسن السلام وبعض الأحاديث عن أحوال المركز التعليمي ومحل العم كامل الذي يقوم بتوريد الأدوات المكتبية له، بينما كنت منشغلة أنا مع شوربة، وكانت كنوز تقوم بإجابة بعض الأسئلة التي أعطاها لها العم غانم، حتى أعلن انتهاء حصة اليوم وبدأ يودعهما طالبًا الانصراف، فوقفت إلى جواره لأذهب أنا أيضًا، **فأوقفتني كنوز قائلة:** إنتِ رايحة فين؟ إنتِ وعدتيني!

نظر لها حسن بعدم فهم.

رحيل: الوقت اتأخر المرة دي، خليها مرة تانية.

كنوز: علشان خاطري.

وهنا دق جرس الباب، فخرج حسن بينما كانت تحاول كنوز إقناعي، وحين عاد مرة أخرى وجدت أن الطارق كان أسرار!

رحيل: أسرار!

قالت أسرار بينما تظهر عليها علامات الكذب بوضوح: كنت باشتري حاجات للبيت والوقت اتأخر قلت ما ترجعيش لوحدك.

كنوز: إنتِ أسرار؟

أسرار ناظرة لي: مين الأمورة؟

حسن: طب اتفضلي ارتاحي، تشربي إيه؟

غانم: إنتم شكل قعدتكم هتطوّل، أستأذن أنا بقى علشان ألحق

الصلاة. أشوفكم على خير.

ودعنا العم غانم وخرج معه حسن إلى باب المنزل، وجلس ثلاثتنا أنا، أسرار وكنوز معًا. كان فضول أسرار قد وصل لأقسى درجة، فأنا أعلم جيدًا كم من سؤال يدور برأسها في هذا الوقت، لذلك كلما رغبت بالتحدث أسكتها. لحظات وعاد حسن مع تكرار كنوز لطلبها مرة أخرى.

كنوز: ها بقى، احكي لي ليه سميتوا تانجو بالاسم دا؟

حسن: ما قلت لك أكيد على اسم رقصة التانجو.

ناظر لى قائلًا: ولا إيه؟

كنوز: ما تسيبها هي تقول، إنت لازم تنط في كل حاجة!

رمقها حسن بنظرة، ومن ثم ألقاها بكتاب من كتبها، فضحك الاثنان، وضحكت أنا وأسرار لضحكهما.

أسرار: دا كان حلم من أحلام رحيل اللي ما بتخلصش.

كنوز: حلم إيه احكي؟

حسن: مش هتبطلي فضول الحواديت دا؟ عايز أقول لكم إن كنوز غاوية تكتب قصص وتحكيها، فاعذروا فضولها بقى.

كنوز: سكت ليه ما تكمل؟ أنا باحكي وهو بيعزف على العود على فكرة، وأخدنا إذن الشيخ حليم إننا نعمل حلقة آخر كل أسبوع عنده في استراحة البيت أو في السنتر.

رحيل: حلو أوي برافو عليكِ، أنا لازم أقرأ لك، أنا كمان باكتب على فكرة.

كنوز: آه ما حسن قال لي.

رمقها حسن بنظرةٍ أربكتها، فشعرت بأنها أخطأت القول مرة أخرى، وفي هذه اللحظة نظرت لي أسرار مبتسمة.

كنوز: طيب يعني هتحكي الحلم ولا لأ؟

رحيل: طيب.. بصي يا ستي، أنا أكتر واحدة في الدنيا ممكن تكون بتحلم وبتصدق أحلامها. فاكرة عادل إمام لما قال في المنسي: أنا أي حاجة أحبها أحلمها؟ أنا كمان كدا، طول عمري نفسي أتعلم التانجو، ليه ما عملتش كدا؟ ما اعرفش، يمكن علشان دي الرقصة الوحيدة اللي محتاجة شريك، وأنا عمري ما كان لي شريك.. باخاف وباكش من فكرة إني أكون مسؤولة في المطلق، فتخيلي لو هاكون مسؤولة عن قلب حد؟

المهم كانت النتيجة إني ما اتعلمتش، لحد ما في مرة كنت نايمة وحلمت إني في جزيرة كبيرة مع شخص باحبه وشريكنا الوحيد عليها كان كلب، كان بيشاركنا كل حاجة حتى الرقص.

صحيت من الحلم دا مبسوطة أوي، حلم كامل شامل كل أحلامي، اتعلمت التانجو، وربيت كلب زي ما دايمًا كنت عايزة، والأهم من دا كله إني حبيت.

كله دا كان عادي حلم زي أي حلم، الغريب في الموضوع إني صحيت لقيت فعلًا إن فيه كلب في البيت، هدية جات لواحدة جارتنا من شخص عزيز عليها، وكان من الصعب إنه يفضل عندها، فعرضت علينا ناخده، فأخدناه وسميته تانجو.. بس كدا.

كنوز: إنتِ رومانسية أوي يا رحيل.

أسرار: رومانسية، حالمة، هبلة، بيبقى كومبو على بعضه كدا.

ضحكت كنوز وابتسم حسن ناظرًا لي، فلكمتها في كتفها، وقمت بتغيير الموضوع: وانتِ بقى مش هتقولي لي ليه سميتي شوربة بالاسم دا؟

ابتسم حسن قائلًا: لأ أحكي لك أنا بقى علشان الموضوع أتفه بكتير من إنها تعمله لِكِ حدوتة وتفضل ترغي فيها ساعة.

قاطعته كنوز قائلة: قول إنك مكسوف تحكي لها إنك فضلت ٣ شهور تأكلني شوربة خضار علشان ما بتعرفش تعمل غيرها.

ضحكنا جميعًا وقذفها حسن بكتابٍ آخر، ومع ذلك أكملت كنوز: آه والله يا جماعة، لما كنا في المجمع كانت واحدة جارتنا وقريبة حسن من بعيد هي اللي بتعمل لنا كل حاجة، وبتطبخ لنا طول الوقت، لما نقلنا هنا طبعًا ما كانش فيه حد يعمل لنا دا، فالأستاذ اجتهد وعمل لنا شوربة خضار، مرة في التانية في التالتة بقى بيعملها حلو، ويا ريته ما عملها! لإننا فضلنا ناكلها لمدة ٣ شهور، وفي يوم كنت قاعدة أنا وهو في الجنينة وسمعنا صوت غريب، بنبص نشوف إيه لاقينا كلبة صغننة يا حبيبي داخلة علينا شكلها كان تايه من مامتها، وتقريبًا الكلاب اتلموا عليها وضربوها، حاولنا نشوف مالها ونربط لها رجلها، وقررنا إننا ناخدها لحد ما حد يجي ويسأل عليها، ما كُناش عارفين نناديها نقول لها إيه، بس فجأة دا وقف مخضوض علشان الشوربة اللي علي النار اتحرقت.. وساعتها قلت له والله لهاسميها شوربة، وقد كان.

ضحكنا جميعًا وشاركتنا شوربة الضحك كأنها تعي أننا نتحدث عنها. بعد لحظات وصلتني رسالة صوتية من إحدى فتيات القرية،

فوضعت الهاتف على أذنيّ، بينما كانت أسرار تتحدث مع حسن وكنوز. أنهيت سماع الرسالة وكتبت لها الرد، ورنت في أذني جملة قالها حسن، فنظرت له لأجده ناظرًا لي وقال: ما هو مش لازم أكون أنا وهي شبه بعض علشان ينفع، يعني أنا باتعلم الغطس، هي بتتعلم الرقص، دا المفروض أصلًا اللي يحصل في العلاقات، ما فيش حد بيدوّر على اللي شبهه، كل واحد بيدوّر على اللي يكمله.

شعرت أنني أرغب في طلب إعادة لهذا الحديث الذي قيل منذ دقائق، ماذا قالت أسرار ليرد عليها ردًا كهذا بينما هو ناظرٌ لي؟!

رحيل: أنا غيبت عنكم دقيقتين بتتكلموا في إيه بقى؟ ما تشركوني معاكم.

أسرار: بنتكلم عن صاحبة حسن اللي شُفناها امبارح، باقول له إنها مش لايقة عليه.

رحيل بنبرة يغلب عليها السذاجة المتعمدة: إيه دا مين دي؟

حسن: البنت اللي كانت معايا امبارح على المركب.

نظرت نظرة تنم عن عدم التذكر!

أسرار: البنت يا رحيل، اللي شُفناها.

ادعيت أنني لا أتذكرها أبدًا، لم أُعطِ لقربها منه اهتمامًا وإن كان بسيطًا، فتاة! أي فتاة؟ ولكن في حقيقة الأمر هي نفس الفتاة التي توصلت لمقاس حذائها!

رحيل: آه افتكرت، دا أنا افتكرتها صاحبة سليم.

حسن: يا سلام! بتبقي عارفة كل حاجة وبتعملي عبيطة.

رحيل: إيه؟

حسن متجاهلًا سؤالي: تشربوا إيه؟ أنا هاعمل شاي.

ونهض من مكانه في اتجاه المطبخ، فنظرت أنا وأسرار كل منا إلى الأخرى بعدم فهم، لنجده عاد مرة أخرى من منتصف الطريق قائلًا: آه بالمناسبة يعني، أنا مش مرتبط ومش مصاحب ومش أي حاجة.

وعاد مرة أخرى من حيث أتى.

علمت في هذا اليوم أن جملة، جملة واحدة من شخصك المميز بإمكانها أن تجعل ابتسامتك من الأذن للأذن دون أي مجهود منك ومنه. ظلت جملته هذه تتردد في أذني طوال الليل حتى ذهب عن عيني النوم تمامًا، لذا قررت أن أكتب له، يبدو أن اليوم هو موعد الرسالة الثالثة من رسائلي إليه التي لن تصل أبدًا، فأخرجت هاتفي وقررت أن أستمع للأغنية التي تأتي أمامي حينها، فوجدت (أهواك) لحليم، لتكون بذلك ثالث أغنية أهديها له بعد (بحار ويا غالي).

أهواك/ عبد الحليم حافظ.

(في لقاك الدنيا تجيني معاك).

«قاعدة باسمع حليم دلوقتي وبافكر فيك، الأولى اختياري، بس التانية غصب عني، مش هاكدب عليك يعني أنا لو بإيدي كنت شيلتك من دماغي وقلبي وريحت نفسي! النهاردا على قد ما اطمنت خُفت، اطمنت إنك مش لغيري، بس خُفت ما تبقاش ليا.

ما تصدقنيش أوي وأنا باقول لك إني عايزة أشيلك من قلبي قبل دماغي.

أنا يمكن فعلًا أكون اتكعبلت فيك ووقعت غصب عني، بس إنت

الوقعة اللي اتمنيت ما أقومش منها أبدًا، وبمزاجي».

عودة إلى الحاضر:

انتهت كنوز من حكاية اليوم، وصفق لها جميع الحاضرين، ولحسن أيضًا الذي قام باختيار لحن رائع يناسب القصة تمامًا.

وقفت حتى ذهب جميع من حوله وأنا على يقين تام بأنه سيأتي ويسألني عن رأيي، وهذا بالفعل ما حدث، تجادلنا حول القصة واللحن بشكلٍ مفصل، لأتأكد ولمرة أخرى من أنه الشخص الوحيد الذي لا أمل أبدًا من حديثه مهما قال. أستمع إليه وكأنه آخر رجل على الكوكب ولا مفر منه إلا سواه.

تركتني أسرار متحججة بأنها ستذهب مع البنات لشراء بعض الأشياء، فأصر حسن على ألا يتركني بمفردي، وأن يصل معي إلى المنزل، فاستسلمت لإصراره، وبينما نحن في طريقنا وجدنا سليم صديق حسن يقترب منا لاهثًا ويبدو عليه الإجهاد الشديد.

سليم: حسن.. عايزك.

أجابه حسن قلقًا: خير يا سليم فيه إيه؟ شكلك عامل كدا ليه؟

سليم: هاقول لك، بس....

قال جملته هذه وهو ناظرًا لي.

رحيل: طيب هاستأذن أنا وأسيبكم تكملوا كلامكم، خلاص البيت على بعد خطوتين يعني.

سليم: معلش يا رحيل، أنا فعلًا محتاج له ضروري.

رحيل: على إيه بس؟ يلا تصبحوا على خير.

حسن: وانتِ من أهل الخير، خلي بالك من نفسك.

قالها بابتسامة عينيه التي أحبها، فابتسمت أنا أيضًا وتركتهما وذهبت إلى المنزل، لم تكن أسرار قد وصلت بالطبع، فاتجهت لغرفة تانجو ووضعت له الطعام والماء، ومن ثم اتجهت إلى غرفتي وقررت أن اكتب لحسن:

بتعرف شعور- أدهم نابلسي.

(مش عم باقدر أفهم إحساسي شو عم يعمل.. كل ما بقرر وقف عم لاقي حالي مكمل).

عمري ما فهمت كلمات الأغنية دي، لإني دايمًا كنت شايفة نفسي جامدة، أقدر أرجع أطول طريق مشيته بخطوة واحدة لو حسيت للحظة إني عايزة أعمل كدا، بس النهاردا أنا اتأكدت إن في طريق الخطوة فيه عمر بحاله، صعب تضحي وترجع منه مهما عُزت. يمكن يكون مش واضح كفاية علشان يطمنك، نهايته مش مضمونة، وما فيش أي علامة تأكد لك إنك ماشي صح.. بس أنا لاقيت الإجابة في نفس الأغنية:

(كل شي قرار إلا الحب غصبًا عنك ما بياخد إذنك، بلحظة واحدة بيغيرك وبينسيك حتى اسمك.

حسن.. أنا باحبك.

الفصل الثاني

لم يعد ينقصني شيء؛ عيناك هنا.

تجلس رحيل على شاطئ جزيرة في منتصف البحر، إلى جوارها مدفأة صغيرة، الجو عاصف للغاية إلا أنها يبدو عليها الاستمتاع، تستمع إلى أغنية (فيروز- رجعت الشتوية)، بينما يلهو تانجو ومعه شوربة إلى جوارها.

من بعيد يظهر حسن يقترب منها حاملًا معطفًا صوفيًّا، ومن ثم يضعه على كتفيها فتبتسم ليجلس إلى جوارها.

حسن: أنا قلت إنك أكيد بردتي.

رحيل: شوية.

حسن: إيه ما زهقتيش؟

رحيل: أنا عمري ما أزهق لا من البرد، ولا البحر ولا فيروز.

حسن: ولا مني؟

أمسكت يده وحركت يدي عليها كي أشعره بالدفء، ومن ثم وضعت قبلة في منتصف كفه الأيسر، وأسندت رأسي على كتفه، ومن ثم أجبته: عمري.

حسن: حتى لو ما كنتش جيت النهاردا وصارحتك بمشاعري؟

اعتدلت في جلستي ناظرة له في منتصف عينيه: لا هنا كان الموضوع يختلف، شوف.. أنا ما عنديش مشكلة إني آخد خطوة واتنين وعشرة في الطريق اللي قلبي يشاور لي عليه، بس لما بازهق، بابعد، باجري بسرعة بتبهرني أنا شخصيًا، وانت وشطارتك يا هتلحقني، يا هتفضل تندم على غباءك اللي ضيعني.

حسن: أعتبر دا غرور؟

رحيل: ثقة، ثقة إن عمرك ما هتلاقي حد يحبك زيي.

حسن مازحًا: طب وإن لاقيت بقى يا ستي؟

رحيل: هابقى ساعتها علمتك درس يخليك ما ترفسش نعمة ربنا مرتين.

استيقظت هذه المرة على صوت أسرار وهي تحاول إفاقتي رغمًا عني.

أسرار: رحيل.. قومي بقى.

فتحت عيني وحاولت أن أعتدل فلم أستطع، لذا تحدث معها بينما أنا في مكاني تحت الغطاء: حرام عليكي يا أسرار، صحيتيني من أحلى نومة.

أسرار: طب قومي علشان الأحلى مستنيكِ برة.

رحيل ناظرة لها بعدم فهم: مش فاهمة!

أسرار: حسن برة.

انتفضت من مكاني واقفة: حسن مين؟

أسرار: هيكون حسن مين يعني؟ انجزي مستنيكِ برة بقى له شوية.

بدلت ملابسي في لحظات واتجهت إلى الخارج لأجد حسن بالفعل منتظرًا.

رحيل: حسن إزيك؟

حسن: إزيك إنتِ يا رحيل؟

قالها بنبرة واهنة وكأنه لم ينم.

رحيل: إنت تمام؟

حسن: لأ.. أنا آسف إني جيت من غير ميعاد، بس فيه موضوع كان لازم أتكلم معاكِ فيه.

رحيل: خير يا حسن؟ فيه إيه قلقتني؟!

حسن: فيه قرار من المجمع بقتل كل كلاب القرية!

رحيل: إيه؟ يعني إيه؟!

حسن: فيه فيروس منتشر اليومين دول في قرية «بالو» القرية اللي جنبنا على طول، والدكاترة اللي هناك شخصوا إن احتمال الفيرس دا يكون بيتنقل عن طريق الكلاب، وللسبب دا المجمع أصدر قرار بإعدام كل كلاب المجمع، والمفروض إن القرار دا هيتنفذ خلال أيام، هم مكتمين على الخبر، بس سليم قدر يعرف.

رحيل: طب والعمل؟ أنا مش ممكن أسيب تانجو حتى لو موتوني.

حسن: سليم قال لي الحل، بس أنا مش قادر آخد قرار.

رحيل: إيه هو؟

حسن: نمشي من هنا.

رحيل: ونروح فين؟ وإمتى؟ وإزاي؟ النهاردا لسا ١٥، يعني ما فيش مركب، وهانروح على فين طالما القرار دا هيتنفذ على كل قرى المجمع؟

حسن: إزاي؟ فسليم يقدر يوفر لنا مركب نتحرك بها للمكان اللي إحنا عايزينه، بس لازم تسيبنا هناك وترجع، ولفين؟ فاحنا ما فيش

قدامنا غير جزيرة من الـ٣ جزر اللي في الناحية الغربية، لإن دا المكان الوحيد اللي يعتبر خارج قوانين المجمع، أما بقى إمتى فدا لازم يحصل في أقرب وأسرع وقت، القرار ممكن يتنفذ في أي لحظة، وساعتها كل مداخل ومخارج البلد هتتقفل ومش هنقدر نعمل أي حاجة.

أنا كل اللي قدرت أعمله من امبارح للنهاردا إني جمعت كل الأكل والمون اللي أقدر عليها، واللي ممكن تكفينا لفترة، أنا حقيقي مش عارف هي قد إيه، خصوصًا إن ساعتها مش هيبقى معانا أي طريقة للتنقل.

لم يتحرك لي رمش.. تركته يكمل حديثه دون أي مقاطعة مني.. فأكمل «أنا كمان جبت كشف بأسامي كل اللي عندهم كلاب هنا في البلد من الوحدة البيطرية، والمفروض هاعدي على كل واحد فيهم أعيد عليه نفس الكلام.. أنا مش هاقدر آخد ذنب إن حد يتحرم من الكلب بتاعه غصب عنه. عارف إنها مخاطرة بس الأكيد إن الحل اللي يرضي ربنا مش إننا نتخلص من أرواح بريئة من غير حتى ما نستنى أي أساس علمي واحد يأكد على الكلام دا، لأ ومعتمدين على شوية احتمالات، أنا جيت أقول لك أول حد لإني عارف قد إيه تانجو مهم بالنسبة لك، وفي الآخر إنتِ ليكي حرية الاختيار، وليكي كمان الحق في إنك تنصحيني لو حاسة إن فيه أي شيء من اللي باقوله دا غلط، أو لو حتى عندك حل تاني شايفه إنه أفضل.

رحيل: حسن، أنا أكيد مش قادرة أستوعب كل اللي انت بتقوله دا، بس الحاجة الوحيدة اللي أنا متأكدة منها إن شوربة ما تقلش عندك أهمية من تانجو عندي.

يمكن ناس كتير هتشوف إنك تسيب بلدك وبيتك علشان الكلب بتاعك جنان، بس ما حدش هيفهم كدا غير اللي ربى كلب، عاشره وحبه، وشاركه الوحش قبل الحلو.

أنا معاك يا حسن وهاساعدك بكل اللي أقدر عليه علشان تانجو وشوربة وغيرهم.

***

كان الأمر أشبه بحكاية من حكايات ديزني، فبالفعل كنت أنا وحسن، وبالطبع معنا سليم وأسرار وكنوز، واثنتان (ليلي ودينيز) بأصدقائهما من الكلاب على ظهر المركب التي أحضرها سليم في الثانية بعد منتصف الليل، التي تحركت بنا بعد نصف ساعة تمامًا من ذلك في اتجاه الغرب.

كنت أجلس إلى جوار حسن الذي كان يحمل على يده كلبًا صغيرًا يداعبه.

حسن: بذمتك مصدقة اللي حصل؟

رحيل: حاسة إني في حلم، مش قادرة أصدق إننا عملنا كدا بجد، بس عارف.. أنا صعبان عليا الناس اللي رفضت تشاركنا وضحوا بأصحابهم بسهولة كدا.

حسن: مش كل الناس عندها رفاهية الاختيار يا رحيل، دا غير إن فيه ناس كتير مش مصدقة إن فيه حملة ممكن تيجي تعمل دا فعلًا.. وللأسف مش هيفوقوا ويصدقوا غير بعد فوات الأوان.

رحيل: ربنا يرحمنا ويرحمهم.

حسن: يا رب.

***

وصلنا إلى الجزيرة الوسطى من جزر الناحية الغربية بعد ما يقرب من الثلاث ساعات، كنا جميعًا مجهدين من اصطدام الرياح بنا طوال الطريق، ومع ذلك كان علينا أن نقوم بتجهيز المكان من أجل التخييم، فقاومنا جميعًا الإعياء الذي لحق بأجسادنا، وتعاوننا في إعداد ذلك، فحتى كلابنا كان لهم دور.

وبعد ساعتين كنا قد انتهينا من كل شيء، بل وأعددنا الطعام أيضًا، ومن ثمَّ خلدنا إلى النوم بعد أن قمنا بتقسيم أنفسنا على عددٍ من الخيم أنا وأسرار في واحدةٍ منهن، ومعنا شوربة، ليلى ودينيز وكنوز في واحدة أخرى ومعهن مستكة وريكا، وسليم وحسن مغا ومعهما تانجو.

كنت أنا أول من قفز إلى فراشه في هذه الليلة، ظننت أنني من شدة التعب سأنام دون أن يتحرك لي جفن، ولكن سرعان ما ذهب النوم عني فور أن قفز حسن إلى رأسي مرة أخرى، أخذ يلعب بي ومعي، يبدو انني لن انجو هذه الليلة ابدًا من فرط تفكيري به، فحتى تعبي الشديد هذا لا ينتشلني منه!

وبعد محاولات كثيرة لم أتمكن بها من النوم، نظرت حولي لأجد أسرار غارقة في النوم، فنهضت من سريري حذرة لكي لا أوقظها، اتجهت إلى الخارج ووضعت بعض الوسائد إلى جوار الموقد الذي أعده سليم من أجل التدفئة، وجلست في مواجهة البحر، وبعد لحظات من ذلك سمعت صوت فيروز يأتي من بعيد، هنا خيل لي أنني ما زلت نائمة وحلم أمس ما زال يعبث معي، حتى وجدت ليلى تقترب مني بهاتفها الذي كان ينطلق منه صوت فيروز بالفعل!

ليلى: اوعي تقولي إن أنا اللي صحيتك! أنا موطية الصوت والله على الآخر، بس الفضا مخليه بيرن، أعمل إيه نسيت سماعتي، وفي نفس الوقت زهقانة ومش جاي لي نوم.

رحيل: خالص والله، أنا اللي قلقت، وبعدين هو يعني حد يطول يصحى على صوت فيروز؟ اقعدي اقعدي واقفة ليه؟

جلست إلى جواري مبتسمة.

ليلى: إنتِ عارفة إن اسمك حلو أوي؟ كل مرة كنت باشوفك فيها في البلد كنت بابقى عايزة آجي أقول لك كدا، بس كنت باتحرج.

رحيل بابتسامة: ربنا يخليكي.. إنتِ كمان اسمك حلو أوي، بس غريبة.. أنا عمري ما شُفتك قبل كدا.

ليلى: مش غريب ولا حاجة، أنا كدا دايمًا ما بتشافش.

وفجأة ودون أي مقدمات انفجرت ليلى في البكاء لدرجة أربكتني، اقتربت منها دون أن أعرف ما الذي يجب عليّ فعله.

رحيل: مالك بس يا ليلى فيه إيه؟ أنا قلت حاجة ضايقتك طيب؟ اهدي بس.

ليلى: أنا آسفة.. أنا مش كويسة، أنا لازم أقوم.

حاولت أن تنهض فأمسكت بيدها مانعة.

رحيل: إنتِ رايحة فين؟ أكيد مش هاسيبك وانتِ كدا اقعدي بس.

اعتدلت وجلست مرة أخرى.

ليلى: أنا آسفة.. ما عرفتش أتحكم في دموعي.

رحيل: وتتحكمي فيها ليه؟ طلعي كل اللي جواكِ وأنا هاسمعك، دا لو حابة.

ليلى: خطوبته أول الشهر الجاي. ما اختارنيش، الوحيد اللي سِبت كل الدنيا واختارته ما اختارنيش. أنا طول عمري لوحدي.. في حياتي ناس اكتر بكتير مما تتخيلي، ورغم كدا لوحدي، مش عارفة العيب فيّا ولا فيهم، بس ما فيش إنسان دخل حياتي وما استغلنيش، حتى هو، كان بيستنزفني يوم بعد التاني وياخد مني كل المشاعر اللي محتاجها ويمشي.. دوّر على اللي يفيده وما لقاش أفيد من باسبور عليه تأشيرة وجنسية بلد لو تعب وشقى بقية حياته مش هيقدر ياخدها. مش هينفع ألومه على إنه اختار مصلحته، بس ينفع أجلد نفسي علشان ما كنتش مالية عينه؟ ما كنتش كفاية بالنسبة له.

كنت جريئة أوي معاه، لسا فاكرة أول مرة شُفته فيها، جريت وقلت لزميلتي على فكرة الشخص دا أنا هاتجوزه، صحيح ما كنتش عارفة اسمه حتى، بس كنت واثقة إنه هيكون في حياتي. اتشقلبت لحد ما عرفت إن اسمه عرفان، محمد عرفان، ومن بعدها عرفت كل حاجة، عرفت كمان إنه معايا في نفس المعهد، ما كانش جاي زيارة يعني زي ما كنت فاكرة، ومن حظي اللي أنا طبعًا عارفاه كويس.. عرفت بردو إنه مصاحب، بس رغم كدا ما فقدتش الأمل، ما قربتش بس كنت عارفة إن هيجي اليوم اللي هاقرب فيه، وحصل وجه. بعد فترة عرفت إنه فركش، ما قدرتش أستنى، أنا فاكرة اليوم دا كويس أوي، كان عندنا امتحان، استنيته لحد ما وصل وبعدين خطفته.. لأ ما باهزرش أنا بجد خطفته، أول ما شُفته قلت له إنت مذاكر المادة دي؟ اتخض طبعًا وأكيد قال في باله مين المجنونة دي؟ وعايزة

إيه؟ بس رد عليا قال لي إنه مش مذاكر. أخدته وجريت على واحد زميلنا بيعمل ملخصات لكل مادة، جبت له وجبت لي نسخة، وقعدت معاه شربته كل الأسئلة، كنت حالفة إني مش هاضيعه من إيدي وأسيبه يروح لأي حد تاني. دخل الامتحان وجاوب على كل الأسئلة وخرج شكرني جامد أوي، ودي كانت أول خطوة خدتها معاه. أسكت كدا؟ لأ طبعًا.. ما اعرفش اليوم دا إزاي عدا من غير ما آخد رقمه أو ياخد رقمي، بس ما يأستش، دورت لحد ما جيبته، ولقيتني بابعت له كل ملخصات المادة اللي جاية.

يومها لاقيته باعت لي مسدج بيقول لي: marry me?، كان بيهزر، بس أنا من جوايا رديت وقلت له، ما تقلقش، كدا كدا هيحصل.

ومن هنا ابتدا كل شيء، بقى كل حاجة في حياتي، ما اظنش إني وانا معاه كان بيبقى فارق لي حاجة تانية.

أنا دايمًا كنت صاحبة الكل، بس ما افتكرش إني مرة وقعت ولاقيت حد يسندني أو حد حتى يقول لي سلامتك. كنت فاكرة إن هو اللي هيعوضني عن كل دا.. كنت فاكرة إني هاعوّض به سنين اللي راحت مني وهاعيشها من تاني، بس هو ما عملش كل دا، بالعكس خانني.

صدمتني كلماتها هذه، لكنني لم أرغب في مقاطعتها أبدًا، أظنها لم ترغب هي أيضًا في ذلك، فتركتها تكمل ما بدأته.

ليلى: خانني مع صاحبتي، صاحبتي اللي دخلت بيتي وأكلت من طبقي ونامت في سريري، ما اعرفش ليه سابت كل الناس واختارته هو؟! وما اعرفش ليه هو دونًا عن كل البنات اختار إنه يخلي خسارتي له خسارتين، ويخليني ما حلتيش حتى حضن أجري عليه؟!

اتعذبت كتير أوي وأنا باحاول أتخطاه وأتخطاها، ما عرفتش أسامحها، بس لما جالي وهو ندمان ما قدرتش ما أسامحوش. أنا كنت واثقة إنه هيرجع، بس ما كنتش فاكرة إني هابقى ضعيفة كدا قدامه وأسامحه على خيانته. واتكرر الموقف مرة واتنين وتلاته وعشرة وكنت باعذي.. لدرجة إني شكيت إني بقيت مريضة. رُحت لدكتور كنت فاكرة إنه فادني، بس يظهر كدا إنه ما أفادنيش.. لإني فضلت راضية بكل الوحش اللي شُفته منه وما مشيتش، فضلت أنا زي ما أنا، بس دا مع الوقت حتى ما عجبوش.. سابني، فجأة قرر يسيبني.. شاف إن مصلحته في بعده عني، وان مستقبله في السفر، اختار واحدة أجنبية تجيب له الجنسية على طبق من دهب، وعلشان هو أصيل وعارف إن الأجانب ما عندهمش حاجة اسمها خيانة وإلا هتسيبه؛ سابني.

تخيلي بعد كل دا في الآخر هو اللي سابني؟!

ومش هاكدب عليكِ وأقول لك إني ما عرضتش عليه إني أكون زوجة تانية في حالة إنه اتجوزها، المهم إننا نفضل سوا، بس تخيلي.. هو اللي ما وافقش، ما وافقش إني أفضل في حياته أصلًا رغم إني كنت باتمنى.

عرفان قدر يخليني مريضة، مريضة به ومعاه، قدر يشغل تفكيري ووقتي حتى وهو مش معايا، وأنا حتى ما حاولتش إني أساعد نفسي، باحاول أتخطاه بس كدا وكدا لإني في الأصل مش عايزة أتخطاه، أنا لسا باحبه، كل حاجة قاعدة تتكركب من حواليا، حتى صحتي ابتدت تفرط مني، كل حاجة في النازل إلا مشاعري ناحيته دايمًا في الطالع.

إنتِ عارفة إني فكرت في الانتحار؟ بس حتى دي فشلت فيها، كان نفسي في حاجة واحدة بس أعيش علشانها، بس تخيلي.. ما لقيتش، حتى كلبتي اللي جيت بها النهاردا ربيتها كنوع من أنواع العقاب لنفسي؛ أنا أصلًا عندي فوبيا من الكلاب، بس كنت مراهنة نفسي إني هاقدر أعالجني، ونجحت، عِرفت تخليني أحبها، بس فشلِت وفشلْت أنا كمان في إنها تخليني أحب نفسي.

أنا جيت هنا هربانة، هربانة من أهلي اللي مش حاسين بيّا، ومن أصحابي اللي كنت أنا صاحبتهم، بس هم عمرهم ما كانوا لي في يوم أصحاب، ومن حب عمري اللي خانني واشترى حتة ورقة وحبة فلوس عنده أمل يعملهم.

عارفة يا رحيل.. أنا دايمًا باقول إني هاموت لوحدي، يمكن للسبب دا باسمح لناس غلط كتير أوي إنها تدخل حياتي، وأنا عارفة ومتأكدة كويس أوي إن وجودها مؤذي حتى لو ليوم واحد.

أنا حياتي بقت عاملة زي الطابونة كل من هب ودب بيدخلها، وما بيطلعش منها غير وهو معلم في قلبي بالموس مية علامة. الغريبة إني ما بقيتش بتأثر، ما بقيتش باعيط.. أنا بقى لي شهور ما نزّلتش دمعة واحدة، يمكن للسبب دا أنا قدرت أحكي لك، علشان قدرت أعيط.. يمكن دا لإن إنتِ الوحيدة اللي من كتير أوي حسيت إنها بتقول لي احكي وهي بجد عايزة تسمع!

وانفجرت مرة أخرى في البكاء، فاحتضنتها بشدة، أظن أنها لم تكن بحاجةٍ لأكثر من ذلك، لم أنطق بكلمة واحدة، تركتها تُفرغ كل ما لديها، فالإنسان في وقتٍ كهذا لا يرغب في سماع أي شيء، لا يرغب في حديث عقل لن يجدي نفعًا حينها.

أعددت لكل منا مشروبًا ساخنًا، وجلسنا نتسامر إلى أن رغبت هي في النوم، وشعرت أنها في حالٍ أفضل مما كانت عليه، فتركتها تذهب، واتجهت إلى الخيمة، وقبل أن أخلد إلى النوم شعرت بالرغبة في كتابة رسالة جديدة إلى حسن:

Don’t let me down - chainsmokers and Raya

(I need you right now, so don’t let me, don’t let me, don’t let me down).

(أحتاج إليك.. لا تدعني، لا تدعني، لا تدعني أسقط).

من يوم ما حسيت بحاجة ناحيتك وأنا باسمع الأغنية دي.

يمكن علشان دايمًا شايفة إن الدنيا عمرها ما هتيجي على هوى أحلامي، علشان كدا أنا دلوقتي كل اللي باتمناه إن ما يجيش اليوم اللي أقول لنفسي فيه يا ريتني ما عرفتك، وأفضل دايمًا شايفاك زي ما أنا شايفاك دلوقتي. أمنيتي الوحيدة اللي بادعي ربنا كل يوم إنها تتحقق.

كنت أجلس بالقرب من البحر على صخرةٍ ما أستمع إلى أم كلثوم بينما الشمس تودعني، حتى شعرت به يقترب، فتظاهرت أنني لم أشعر -لا أعرف لمَ؟- وأكملت الغناء معها.

«حبيبي لما يوعدني تبات الدنيا ضاحكة لي
ولما وصله يسعدني ما فكر في اللي يجرى لي
ينسيني الوجود كله ولا يخطر على بالي.

حسن: بتحبي الست؟

رحيل: قوي.

جلس على صخرةٍ إلى جواري ناظرًا لي وأكمل حديثه: كنت فاكر كل البنات زي كنوز بيحبوا الأغاني الدلعة بتاعة اليومين دول.

رحيل: كل حاجة ولها وقتها، حتى الست.

حسن: وإيه بقى وقتها؟

رحيل: لما باحب، أفكر، أو لو بالي كان مشغول.

حسن: ويا ترى إيه اللي شاغل بالك دلوقتي؟

رحيل: محتاج تعرف؟

حسن: لو مش عايز ما كنتش سألت؟

رحيل: ما سألتش إن كنت عايز، سألتك لو محتاج.

حسن: وإيه الفرق؟

رحيل: لو عايز يبقى فضولك اللي محركك.

حسن: ولو محتاج؟

رحيل: يبقى قلبك ضاغط عليك تسأل.

حسن: بتجيبي اللماضة دي منين؟

رحيل: منك.. ما انت ما علمتنيش ألعب بالعود وبس، علمتني كمان ألعب بالكلام.

حسن: مش هاخلص من لسانك؟

رحيل: لو على لساني ممكن يسكت، بس شوف لك حل مع لسانها هي.

«أوريه الملام بالعين وقلبي على الرضا ناوي

بيجرح قد ما يجرح ويعطف تاني ويداوي

أهو من دا ودا الحب كدا مش عايزة كلام

الحب كدا».

حسن: رحلتنا لسا طويلة ومش دايمًا هتغلبيني!

رحيل: مين قال إني عايزة أغلبك؟

حسن: عينيكِ.

رحيل: يبقى صدقهم.. ما بيكدبوش.

حسن: يعني عندي حق؟

رحيل: إني دايمًا باغلبك؟

حسن: إني دايمًا مغلوب وراضي.

ومن ثمّ استيقظت من نومي رغمًا عني على صوت كنوز تتشاجر مع تانجو وشوربة، في بادئ الأمر لم أعطِ لشجارهم اهتمامًا، فأنا ما زلت عالقة عند حلمي الجميل هذا، حتى رأيت كنوز تحاول أن تنتشل شيئًا من فم كل منهما.. رسائلي، إنها حقًّا رسائلي!

قفزت من سريري بسرعة الرمح دون أيةِ مراعاة مني لحالة كتفي الذي لم أشعر حتى بوجعه حينها، وساعدتها في انتشال الرسائل، تنهدت كثيرًا حين وجدتها على نفس حالتها لم يحدث بها شيء. التقطت جميعها والتقطت أنفاسي أيضًا، وجلست بجوار فراشي أتفقدهم مرة أخرى، الأمر الذي زاد من دهشة كنوز التي اقتربت مني قائلة:

كنوز: يا ترى إيه اللي في الجوابات دي يخليكي تخافي عليهم كدا؟

رحيل بتردد بعض الشيء: ولا حاجة، حبة فضفضة على حبة كلام ما لوش لازمة.

كنوز بنبرة خبث: ما لوش لازمة فتخافي عليه كدا؟!

رحيل: ما تتذاكيش عليّا يا كنوز.

كنوز: يبقى ما تستغبنيش يا رحيل، هتقولي لي ولا أعرف بطريقتي؟

وأشارت إلى إحدى الرسائل التي التقطتها من أسفل قدمي، يبدو أنني أسقطتها من ربكتي دون أن أشعر.. فاستسلمت خوفًا من أن تفعل وتقرأها.

رحيل: هاقول لك.

كنوز: ما كان من الأول.. بس عمومًا أنا ما كنتش هافتحها، ولو مش حابة تحكي بلاش.

رحيل: إيه العقل دا؟

كنوز: مش عقل ولا حاجة، أنا بس قريت في عينك إنك كدا كدا هتحكي لي. مراية، عم غانم قال لك مراية.

ضحكنا بصوتٍ مرتفع على جملتها هذه، خاصة وأنها قالتها مقلدة طريقة العم غانم كما لو قالها هو.

رحيل: قردة والله.

كنوز: طب احكي بقى.

أنهت جملتها هذه وجلست إلى جواري.

رحيل: هاحكي لك اللي أنا عايزة أحكيه ومش هتسأليني ولا هنتكلم في اللي مش هاقوله.

كنوز: ما تصعبيهاش علينا وعليكِ وقولي لي ما ترغيش وتقاطعيني وأنا هافهم.

رحيل ضاحكة: ماشي يا لمضة.

كنوز: ها قولي.

مددت يدي لها بأربع رسائل، والخامسة كانت بيدها، وطلبت منها أن تقرأ المكتوب خلف كل واحدة منها قبل أن أروي لها ما أريد، فبدأت تقرأ.

كنوز: بحار- بلاك تيما

أهواك- عبد الحليم حافظ

يا غالي- نوران ابو طالب

بتعرف شعور- أدهم نابلسي

Don’t let me down - chainsmokers and raya.

أنهت كنوز قراءة المكتوب خلف جميع الرسائل ونظرت لي نظرة تنم عن عدم الفهم قائلة: عروستي.

رحيل ضاحكة: هاقول لك.

حاولت الإلمام بنفسي وإزالة الحرج الذي بدأ يتسلل لي، ومن ثم تحدثت.

رحيل: أنا ما اقدرش أعيش من غير مزيكا، هي الحاجة الوحيدة اللي كنت باقبل إنها تشاركني اللحظات اللي عمري ما حبيت أشاركها مع حد. كل واحد عنده لحظات ضعف ما يحبش إن حد يشوفها، لحظات قوة مش دايمًا بيختار إنه يبينها، ولحظات بيشوف فيها الوحش اللي فيه لدرجة بتخليه عايز يتدارى من العالم كله، لحظات بيحب فيها نفسه، ولحظات بيكره فيها إنه اتولد.

كل اللحظات دي وقدها مليون مرة عدت عليّا وعديتها باللي باسمعه، الشرقي والغربي، منها اللي ما بافهموش بس باحِسّه، ومنها اللي مش مهم أحسه لو هيخلي مزاجي حلو.

علشان كدا يوم ما حسيت بحاجة ناحية حد، قررت إن هي دي تبقى الطريقة اللي أطلّع بها اللي جوايا، المزيكا!

كل رسالة من دول جواها كلام وحكايات كان نفسي أقولها له وما

قدرتش، وأغنية كان نفسي أسمعها وأنا جنبه وراسي على كتفه بس دا لسا ما حصلش.

يمكن يجي اليوم اللي الرسايل دي تبقى من حقه وأقعد أنا وهو نقراها سوا ونعيد ونزيد في الأغاني دي.. ويمكن اليوم دا ما يجيش خالص وتفضل الرسايل والأغاني ذكرى، حبة حبر على ورق أجري أبص عليه من وقت للتاني علشان أتأكد إن فيه شيء لطيف حسيت به في يوم من الأيام وللأسف ما كملش، الرسايل دي مشاعري بكل اللي فيها من كلام ما اتقالش، وأغاني ما اتسمعتش.

بدا التأثر على وجه كنوز.

رحيل: بس يا ستي.

كنوز: إنتِ جميلة قوي يا رحيل.

اتبسمتْ، فتنهّدَت وأكملت حديثها: هو أنا ينفع أسألك سؤال؟

رحيل: ابتدينا.

كنوز: سؤال واحد بس والله، ولو مش عايزة تجاوبي عليه خلاص.

رحيل: اسألي.

كنوز: ليه معذبة نفسك وكاتمة كل دا جواكِ لدرجة مخلياكِ بتشكي وتحكي للورق، لما كان ممكن تروحي تصارحيه؟

رحيل: مستحيل.

كنوز: آه، إنتِ منهم؟ بتوع إن الراجل لازم هو اللي ياخد أول خطوة ويقول بحبك، وإن الست ما ينفعش أبدًا هي اللي تبادر

والكلام اللي بياكل في العمر والقلب دا؟

رحيل: بالعكس، أنا مع إنك ما تخبّيش مشاعرك لإنها مش عيب، ومع إنك تبادري وتطلّعي كل اللي جواكِ واللي إنتِ حاساه لأن أي شيء بسيط هتحسيه أكيد يستاهل، بس دا لما تكوني واثقة تمامًا من مشاعر اللي قدامك، واثقة إنه على الأقل حاسس بكِ وبمشاعرك، وإن أزمته الوحيدة هي عدم قدرته على إنه يواجه ويقول، فبتاخدي إنتِ الخطوة بداله، بتسهليها عليكِ وعليه زي ما بيقولوا، بس طول ما إنتِ مش واثقة ما ينفعش تاخدي خطوة زي دي لإنها ممكن تشوش على كل الحلو اللي إنتِ شايلاه لو الرد ما ريّحكيش، أو لو اللي قدامك فجأة حسسك إنه كان بيتهيأ لك، وصدقيني ما فيش أوحش ولا أصعب من عتابك لنفسك بعد مواجهة زي دي وانتِ بتقولي لها: معقول أنا كان بيتهيأ لي كل دا؟ معقول أنا عيشت دا كله لوحدي؟ معقول أنا حبيته كمان لوحدي؟

أنا مشعلقة نفسي في حبال دايبة وبادعي ربنا إني ما أقعش، لإني مش حمل إني أقع خالص صدقيني، ولو اللي قدامي ما حسسنيش في يوم من الأيام بالثقة اللي تخليني آخد الخطوة دي عنه لو اتأخر فيها اختصارًا للعمر اللي بيضيع واحنا مش مع بعض، فأنا عمري ما هاعمل كدا؛ أنا مشاعري ما فيش أغلى منها يا كنوز علشان أنا عارفة أنا لما باحب باكون عاملة إزاي، وباضخي وبادّي وباعافر لأي درجة، علشان كدا مش سهل عليّا أرمي كل دا في الأرض، أنا لو مش مطمنة أو لو هو ما قدرش يطمني يبقى لا يستاهلني ولا يستاهل مشاعري ولا يستاهل حتى إني أحاول.

علشان كدا الرسايل دي هتفضل من حقي أنا وبس لحد ما أتأكد إنه حاسس بكل اللي فيها من قبل حتى ما يقرأه.

أنا مش طالبة شيء صعب أو مستحيل، أنا كل اللي طلبته إن الراجل اللي حبيته، يكون بيعرف يحب، يحس ويقدر.

ودا مش كتير عليّا.

مش كتير أبدًا.

لم أكن أعرف أن حديثي مع كنوز سيأخذ قلبي وعقلي في رحلةٍ لبداية الحكاية التي لم تبدأ بعد.. شعرت وكأن كل شيءٍ قد حدث للتو، تذكرت كل موقفٍ قد جمعني بحسن منذ البداية، شعرت بدموعي على خطى الانهيار، لذا أخذت رسائلي وتحججت أن شوربة وتانجو بحاجة إلى السير، فكان رد كنوز: بالرسايل؟ هتخرجي تمشي تانجو وشوربة بالرسايل؟

فأجبتها فقط بابتسامة وخرجت، وسرت وإلى جواري تانجو وشوربة إلى حيث لا نعرف، حتى وجدت بقعة خضراء فجلست عليها ونظرت إلى رسائلي وانفجرت في البكاء.. متسائلة كيف يتحول المرء من إنسان حكيم، ناضج، قادر على الموازنة بين عقله وقلبه في لحظة لشخص ضعيف كهذا لا يتمكن حتى من مجابهة مشاعره؟!

وكأنني كان ينقصني ألمًا على ألمي، شعرت بأنني أرغب في قراءة الرسائل مرة أخرى، ربما رغبت في استعادة ما تبقى من الذكريات التي لم يتمكن حديثي مع كنوز من إعادتها، فالتقطت الرسائل وأعدت ترتيبها تبعًا لموعد كتابتها العالق بذهني كما لو كان تاريخًا محفورًا عليها.

وكانت البداية هي رسالة (بحار- بلاك تيما)

رسالتي الأول له ولنفسي.. من هنا بدأت أشعر بشيء، من هنا بدأ كل شيء.

بحار/ بلاك تيما.

(مهما تغيب ع العين نورك على الشطين حبك قدر مكتوب).

ما أعرفش ليه وإزاي وإمتى.. أنا حتى ما اعرفش أنا حاسة بإيه دلوقتي! كل اللي أنا عارفاه إني قررت أكتب هنا كل اللي مش فاهماه ولا عندي الجرأة إني أحاول أفهمه.

من فترة عديت من جنبك وانا باسمع الأغنية دي، ومن يومها وأنا باسأل نفسي: ليه؟ ليه حسيت إني عايزة أقول لك: تيجي نسمعها سوا؟

ليه إنت بالذات؟ وليه أغنيتي المفضلة؟!

مش هانكر إني خُفت، كشيت، مُت في جلدي، حسيت إني عايزاك تتبخر من قدامي، لأ من قدامي إيه؟! أنا حسيت إني عايزاك تتبخر من الدنيا كلها، ما كُنتش عايزة أشوفك تاني، كنت خايفة أشوفك تاني.

خُفت تكون إنت! إنت اللي فضلت لوحدي كل دا وأنا باستنى اليوم اللي أسمعها معاه.

خوفوني منك، قالوا لي: صعب، مجنون، وما لوش ماسكة، لسانه حلو، وبياكل كل اللي يجي قدامه بكلمتين، سمعت عنك قبل ما اشوفك، واللي شفته منك بعد اللي سمعته خوفني أكتر.. خوفني علشان قدرت تاكلني بكلمة ونص مش باتنين!

***

أغلقت الرسالة لأجد هذا اليوم يمر سريعًا أمام عيني، أتذكر خجلي منه حينها، خوفي من أن يرى في عيني كل هذا، هربي المستمر منه، ولجوئي دائمًا لأي مكانٍ قد لا يراني فيه أو أراه، وكلما هربت منه أجده أمامي، لدرجةٍ جعلتني أظن أنني كنت أزعم الهرب منه لأجده.

ربما جسدي يهرب وروحي تبحث وتأخذني أينما ذهب!

في هذا اليوم قررت التخلص من عبء ما زاد وفاض بداخلي، قررت أن أتحدث مع أسرار، ولكن سرعان ما تراجعت؛ لم أرغب في أن أجعل من مشاعري قصة أتسامر بها أنا وصديقتي، مشاعري التي أتجاهلها إلى الآن؛ لم أرغب في أن أصدقها وتصدقها هي أيضًا، ربما شعوري هذا ما هو إلا شيء عابر ينتهي خلاص أيام ويصبح غريبًا كما كان.

ومن هنا أتت من داخلي الرسائل، كما قلت: من هنا بدأ كل شيء.

***

التقطتُ الرسالة التالية لأجدها (يا غالي- نوران أبو طالب).

ثاني رسائلي إليه، في هذا اليوم كنت أكثر جرأة من السابق، في هذا اليوم قررت أن أفهم وأعي حقيقة ما أحمله بداخلي لهذا الشخص، وفي هذا اليوم أيضًا علمت أنه سيرحل من القرية!

يا غالي- نوران أبو طالب.

(ما أصدق تغيب عني وأعاني في أيامي.. يا غالي).

لو حكيت لك أنا قلبي إزاي اتخطف لما قلت إنك ماشي أكيد مش هتصدقني، لإن أنا نفسي مش عارفة أصدق اللي حسيت به.. ما هو

إزاي تحس بخسارة حاجة عمرك ما ملكتها؟ بس أنا حسيت إني خسرتك!

أو يمكن خسرت إحساس جميل كنت باحسه كل يوم وانا شايفاك قدامي. صحيح مش عارفة لحد دلوقتي إيه هو، بس الأكيد إنه بقى فارق معايا!

النهاردا إنت قربت مني لأول مرة وسألتني: كنتِ هتزعلي يا رحيل لو كان جرى لي حاجة؟

هزيت دماغي وضحكت، كان نفسي أقول لك: كنت هازعل.. هازعل أوي كمان، لإني للأسف النهاردا حسيت إني غالبًا كدا هاحبك.

***

فلاش باك:

تظنه في بادئ الأمر يومًا كأي يوم، لكنه لم يكن أبدًا كذلك.

فاليوم أنا لم أذهب فقط لمساعدة أطفال القرية في فهم دروس اللغة الإنجليزية بالمركز التعليمي الذي يمتلكه حسن، أنا ذهبت أيضًا لمساعدة طفلة لم تتمكن إلى الآن من فهم نفسها، ذهبت لمساعدة نفسي.

اليوم عاهدت نفسي ألا أخاف، ألا أهرب، وأن أترك نفسي فقط لما يأتي من داخلي.

ذهبتُ باكرًا من أجل إعادة بعض الكتب التي استعرتها أمس من مكتبة المركز، وبينما أنا في طريقي وقعت عيناي عليه في بداية الممر قادمًا باتجاهي، أخذت نفسًا عميقًا وانتظرته عازمة على تنفيذ

قراري.

حسن باسمًا: صباح الفل.

رحيل: صباح الخير.

حسن: عاملة إيه؟

رحيل: أنا الحمد لله بخير.. وانت؟

حسن: شكلي هاوحشكم.

رحيل: إيه دا؟ ليه؟

حسن: فيه خلاف ما بيني وما بين الحاج حليم ما أعتقدش إنه هيتحل، علشان كدا أنا أخدت قراري هابيع نصيبي في المركز وهارجع تاني المجمع.

ثمة شعور سيئ استقر في صدري فور أن أنهى جملته هذه.

رحيل: دا قرار نهائي ولّا لسا بتشاور عقلك؟

حسن: للأسف نهائي، ما فيش قدامي حل تاني؛ أنا وهو مش قادرين نتفاهم أبدًا، بس أهو آديني باشوف، ربنا يقدم اللي فيه الخير. بالمناسبة أنا عارف إني مهما قلت مش هالاقي كلام أشكرك به على تعبك معايا في السنتر، بس حقيقي شكرًا يا رحيل بالنيابة عن كل طفل ساعدتيه إنه يتعلم حاجة، خصوصًا بالإمكانيات الضعيفة اللي كانت موجودة في البداية.

أنا هافضل شايف إن أصح حاجة أنا عملتها إني طلبت منك تنزلي تدرسي معانا في السنتر، وهافضل أشكر الصدفة اللي خلتني أشوف قد إيه إنتِ شاطرة في الإنجليزي.

رحيل: وأنا هافضل أشكر الصدفة اللي خلتني أقابلك يا حسن.

***

عودة إلى الحاضر:

هذه المرة لم أمنع نفسي عنه، نظرت في منتصف عينيه وأنا أعلم جيدًا أنني حتمًا سأقع، وحدث ما حدث.

وقعت فيه منذ ذاك اليوم، إلى الآن وإلى الأبد.

ولم يكن ذاك اليوم هو الأفضل بالنسبة لحسن على الإطلاق؛ ففي اليوم الذي أخبرني فيه أنه سيرحل من البلدة نشب شجار عنيف بينه وبين أحد أولياء الأمور بالمركز، تطور الأمر إلى رفع هذا الرجل سلاحًا في وجهه. صرخت حينها رغمًا عني صرخة كتمتها بوضع يدي على فمي خوفًا عليه!

وسرعان ما تم إنقاذ الموقف بتدخل بعض الأهالي، ولكن علق هو عند صرختي، فبعد انتهاء الموقف وانصراف الجميع اقترب مني مبتسمًا قائلًا: يا ترى كنتِ هتزعلي يا رحيل لو كان جرى لي حاجة؟

تلعثم لساني في هذه اللحظة، فهززت رأسي وحاولت تغيير الموضوع ببعض الدعابة!

كانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر بأنفاسه من شدة قربه.. كانت هذه هي المرة الأولى التي أشتم بها رائحته، وأحفظها.. أحفظها جيدًا.

***

وضعت الرسالة الثانية جانبًا، والتقطت الرسالة التالية لأجدها:

(أهواك- عبد الحليم حافظ).

ثالث رسائلي إليه.

ابتسمتُ على الرغم من دموعي، فما زلت أتذكر كل حرفٍ كتبته بها، أتذكر أحداث هذا اليوم جيدًا، فتاة المركب، أول لقاء لي بكنوز، شرائط فيروز، أعداد مجلة ميكي.. وعينيه!

تنهدت وبينما كنت في طريقي لفتح الرسالة سمعت صوت أقدام تقترب، فأخفيت الرسائل في ملابسي وتظاهرت بمداعبة شوربة وتانجو حتى تبين القادم من بعيد، فوجدتها دينيز بكلبتها الصغيرة «ريكا».

دينيز فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، بيضاء اللون، بعينين كلون البحر، تناسبها تمامًا مقولة أن الإنسان يأخذ نصيبًا من اسمه، تشعرك فور رؤيتها بالمسؤولية تجاهها، ترغب في مداعبتها كما لو أنها طفلتك، تحب أن تنظر إليها وكأن على وجهها لافتة تقول: هذا الشخص هو المسؤول عن نشر البهجة في المكان.

دينيز: إنتِ كويسة؟

رحيل: الحمد لله، تعالي اقعدي.

جلست إلى جواري قبل أنهي جملتي.

دينيز: لو حابة تقعدي لوحدك أنا ممكن أقوم.

رحيل: خالص بالعكس، قولي لي إنتِ عاملة إيه؟ نمتِ كويس ولا لسا ما أخدتيش على المكان؟

دينيز: نمت كويس جدًا كمان، بس إنتِ اللي واضح إنك ما نمتيش

كويس، عينك منفخة، إنتِ معيطة؟

رحيل محاولة تغيير الموضوع: خالص.. أنا بس مش نايمة كويس فعلًا.

دينيز: صارحيه يا رحيل.. صارحيه.. فيه رجالة كدا لازم تشربيها مشاعرك بالمعلقة علشان تفهمها، وإلا هيعيش طول عمره خايف ياخد خطوة ليترفض، حسن منهم، باين عليه.

نظرت لها بعدم فهم: إنتِ مين قال لك؟!

دينيز: أنا كنت شاكة، بس إنتِ دلوقتي اللي قُلتِ أهو.

ابتسمت رغمًا عني: كنتِ بتوقعيني يعني؟

دينيز: وانتِ سهلة أوي بصراحة.

ابتسمتُ رغمًا عني مرة أخرى: بس بردو عرفتِ إزاي؟

دينيز: باين عليكِ يا رحيل، ومش هاشوف نفسي باشجعك لو قلت لك إن حسن كمان باين عليه تقيل، أنا اشتغلت معاه شهر كامل في المركز ما شُفتش رخامة كدا بصراحة.

ضحكت هذه المرة بصوتٍ مرتفع.

دينيز: آه والله، ما شُفتش كدا بجد، روبوت، إنسان آلي، بس معاكِ ما حسيتش كدا، معاكِ بيتكلم طول الوقت بعنيه حتى وهو ما بينطقش.. أنا شُفت عينه وهي بتدور عليكِ لما بعدتِ شوية، علشان كدا باقول لك ما تستسلميش لسكوته، خدي إنتِ الخطوة عنك وعنه.

رحيل: إنتِ عارفة إن دي تاني مرة النهاردا باسمع فيها نفس

الكلام دا؟

دينيز: يبقى اعتبريها إشارة وفكري.

رحيل: أو أعتبرها إشارة واصرف نظر عن الموضوع دا خالص.

رحيل: ليه بتقولي كدا؟

دينيز: علشان تعبت يا دينيز، كان نفسي أوي إني يوم ما أحب ما أشغلش دماغي بحاجة غير إني أستمتع بكل لحظة حلوة هتجمعني بالإنسان اللي باحبه وبس، لكن أنا من يوم ما حسيت بحاجة ناحية حسن وأنا ما باعملش أي حاجة غير إني بافُك في شفرات، وباشغّل عقلي مش قلبي؛ لما قال كذا كان يقصد كذا ولا كذا؟!

طيب أنا في دماغه فعلًا، ولّا يكون بيتهيأ لي؟!

طب نظرته اللي أنا مصدقاها قوي دي كانت ليّا، ولّا هو سرحان في اللي بيتمناها ومش قدامه؟

تعبت من الأسئلة الكتير اللي ما لهاش إجابة.

دينيز: أنا معاكِ إن حسن شخصية مش سهل تتفهم، بس إنتِ عليكِ إنك تحاولي.

رحيل: مرة من المرات أسرار جات قالت لي: (اتعبي شوية علشان تفهميه، دوري وراه وشوفي بيحب إيه، اعرفي عاداته، المزيكا اللي بيحب يسمعها، الأفلام اللي بيحب يشوفها، حاولي تقربي له بالحاجات المشتركة ما بينكم يمكن ساعتها الدنيا تبقى أبسط).

جربت أعمل كدا بس ما قدرتش، ما عرفتش، أنا ما باحبش الترتيب والخطط، باحب الحاجة تحصل علشان كان لازم تحصل، لو

هنقرب فنقرب علشان عايزين دا مش علشان شايفينه مناسب!

دينيز: إنتِ عارفة إن على الرغم من إنكم لايقين جدًا على بعض، بس انتوا أبدًا مش شبه بعض.

رحيل: وأنا حسن ما عجبنيش علشان شبهي، لإن في الحقيقة إننا مش شبه بعض في أي حاجة، بس هو الشخص اللي اتمنيت في يوم من الأيام إن اللي ناقصني هو وبس اللي يكمله، حسيت إننا عاملين زي البازل، من بعيد ممكن تقولي استحالة القطعة دي تركب على دي، بس أول ما تشوفيهم جنب بعض تعرفي قد إيه كنتِ غلطانة، وقد إيه شكلهم حلو سوا.

دينيز: إنتِ مصغباها على نفسك أوي.

رحيل: دا لإن حسن صعب، مش مفهوم، أو بيعرف يكون مش مفهوم، كل كلمة بيقولها بخمسين معنى. ساعات باحس إنه حاسس بحاجة ناحيتي، وساعات تانية باقول استحالة يكون حتى فكر في دا. دايمًا على لسانه كلام عايز يقوله بس سكوته على طول رامي الشك في قلبي ومخليني حاطة ٧٥٪ من طاقتي في تلاجة باصبر بها نفسي كل ما أحس إني خلاص جبت آخري ومش قادرة أحاول تاني.

أنا مش كدا يا دينيز، أنا عمري ما خُفت من مشاعري، دايمًا باجري معاها لفين ما تاخدني، باقدّرها وباحترمها وباصونها وباطمّنها إني هاعمل لها دايمًا اللي هي عايزاه.

لما باحس إني عايزة أقول حاجة باقولها من غير ما أفكر فيها طالما مش هأذي بدا حد، لما باحس إني عايزة أعمل حاجة باعملها من غير ما أحسبها طالما مشاعري اللي حركتني وأكدت لي إني كدا هاكون

مرتاحة ومش شايلة حاجة جوايا. ما بخافش.. علشان دي الحاجة الوحيدة اللي دايمًا بتخليني أنا، بكل الحلو والوحش اللي جوايا، بمشاعر الطفولة والنضج وبكل حاجة وعكسها حسيت في يوم من الأيام بيها.

أنا عمري ما داريت مشاعري، وعيوني دايمًا فاضحاني، علشان كدا عمري ما باندم على شيء حسيته مهما كان بسيط أو (عبيط) لإني عيشته، حسيته واتمنيت ما يبقاش شيء عابر ياخد يومين ويخلص.

بس حتى لو خلص أنا مش هاندم لإن أنا كدا.. أنا ما باندمش.

مشكلة حسن إنه حتى مش مديني فرصة أكون أنا، على طول مخليني تايهة وأنا باجاوب على الاسئلة اللي بيفرضها عليّا كل يوم من غير ما يقصد ومطالب مني أجاوبها لنفسي علشان أريّحها.. لإني لو ما عملتش كدا هامشي.

دينيز: طب إنتِ ناوية على إيه؟

رحيل: هتصدقيني لو قلت لك مش عارفة؟ أنا دايمًا بادي لنفسي (ديد لاين) لأبسط حاجة في حياتي حتى لو بشكل عشوائي ومش مبرر، اللي هو أنا لو قلبي فضل مقبوض فأنا ٧ دقايق، وهامشي من المكان دا.

أنا ٢٥ دقيقة وهاقوم أروّح علشان قعدتكم مش لذيذة، أنا باعمل كدا تلقائي، باحس إن دا التزام مني لنفسي وفي نفس الوقت مش هاعمله غير لو كنت مرتاحة.. القرار قراري ووقتي مش ملك لحد غيري.

نفس الفكرة لما باكون مقفولة من حد مضايقني وباقرر أتعامل معاه فجأة، بيني وبين نفسي بابقى مقتنعة إني بادي له فرصة أخيرة يمكن يصلّح موقفه في دماغي، لما دا ما يحصلش (ديد لاين) الفرصة الأخيرة بيشتغل تلقائي، وبامشي، بامشي من غير ما أفكر لحظة.. وكلي اقتناع إني حاولت للآخر.

وأنا واثقة إني هاوصل للحظة دي في يوم من الأيام مع حسن، يمكن لحد دلوقتي مش عارفة ودا لإن الصدفة دايمًا بتيجي وتدي له فرصة تانية، بس أنا متأكدة إن فيه فرصة من دول هتكون الاخيرة.

بعد حديثٍ لم يستمر طويلا بيني وبين دينيز قررنا العودة لمشاركة أسرار والبنات في إعداد الطعام، وبينما كنت منهمكة في تحضير السلطة وإلى جواري دينيز اقترب حسن مني.

حسن: ينفع أبص بتعملي إيه؟

بدا التوتر على وجهي فور أن اقترب مني.

حسن: مالك اتوترتِ كدا ليه؟

رحيل: ما اتوترتش.

حسن مبتسمًا بتحدٍ: اتوترتِ ليه؟

نظرت إلى جواري فوجدت دينيز تبتسم.

رحيل: دينيز.. اتوترت من دينيز.

حسن: والله دينيز بتوترك؟!

ابتسم ثم أكمل: طيب هامشي أنا بقى يمكن تبطل دينيز توترك.

ظلت على وجهه نفس الابتسامة، وانصرف فور أن أنهى جملته وجلس في مكانٍ ليس ببعيد عنا.

دينيز: لسا شايفة إن مش باين عليه حاجة؟

رحيل: ولا الهوا.. حسن (سويت توكر)، دايمًا ردوده لذيذة وحاضرة، لو طول الوقت صدقتها كنت قلت إنه بيحبني من تالت مرة اتكلمت معاه فيها.. والنبي ما تلعبي في دماغي علشان أنا أصلًا مش ناقصة.

دينيز: أنا مش بالعب في دماغك، أنا باساعدك تشوفي الصورة.

رحيل: باقول لك إيه لو عنده حاجة كان قالها.. خلينا في السلطة.

دينيز: غبي قوي.. حقيقي غبي.

رحيل: ليه؟

دينيز: علشان ما عرفش يكسبك.

رحيل: تقصدي ما حاولش يكسبني.

دينيز: هيندم .. صدقيني هيندم.

رحيل: ما فيش حد بيندم على خسارة حاجة ما تعبش علشان يكسبها.

***

مر على تواجدنا بالجزيرة عدة أسابيع، اقتربت خلالهم من حسن أكثر فأكثر، وكلما اقتربت وتمكن خوف خسارته مني، كلما شعرت بالضعف تجاهه ورغبت في مصارحته.

ولكن ما جعل هذه الأيام تهون حقًا، وأخمد رغباتي المستمرة هذه لم يكن سوى الفتيات، لكل منهن حكاية تجعلك ترغب في عدم الاستسلام للحب أبدًا، تدفعك للخوف والابتعاد، فحتى دينيز التي تنشر دائمًا بهجتها في كل مكان صارحتني بأن هذه الابتسامة ما هي إلا غطاء لحكاية لا ترغب أبدًا في ذكرها جعلتها تخشى حتى التفكير في أن تكرر هذه التجربة مرة أخرى، والتي ذكرها بها اقترابها من سليم الذي أوشك أن يخبرها بما يشعر تجاهها، والتي أراه ويراه الجميع، فهو لا يبذل ولو مجهودًا بسيطًا حتى في إخفائِه، وما يبدو أيضًا أن شعوره هذا ليس من طرفه فقط.

دينيز: يعني إيه؟

رحيل: يعني إنتِ كمان حبتيه يا دينيز، باين عليكِ، إنتِ ما شُفتيش خضتك عليه من شوية لما وقع على رجله.. أنا حسيت ساعتها إني سامعة ضربات قلبك، وحقيقي أنا مش عارفة إيه اللي مخوّفك؟!

دينيز: مش عايزة أتجرح يا رحيل.. أنا باخاف على نفسي، سيبك من إني عاملة جامدة وولا بيهمني، بس أنا قلبي إزاز، عارفاه وحفظاه.. وسبق واتدغدغ قدام عيني مية حتة.

رحيل: لسا بردو مش عايزة تحكي لي؟

دينيز: مش عايزة أفتكر، كنت كل ما بافتكر باحس نفسي رخيصة أوي، أنا صحيح نسيته بس ما نسيتش إني أذيت نفسي كتير أوي بوجوده.

سقطت دمعة من عينيها سارعت بإخفائِها، ومن ثم أكملت: كل اللي أقدر أقوله لِكِ إني عشت أجمل قصة حب في الدنيا، كان

بيحبني أكتر ما باحب نفسي، أو أنا اللي كنت فاكرة كدا في الأول.

كنت دايمًا باقول إن الإنسان اللي بيلاقي الحب دا إنسان محظوظ، وأنا خدت نصيبي من الحظ دا مرتين، مرة لما لاقيته، ومرة لما حبني أكتر ما حبيته.

كنت حاسة إني مالكة الحدوتة بإيدي، وإن هو اللي محتاج لي وعايز وحابب يفضل، بس طلع كان بيأكلني الأونطة تقريبًا، بيعلقني به بس بطريقة تانية.. طريقة إنه يطمني وأنا ما كنتش محتاجة لحاجة تانية غير دي، وبتهيأ لي مش أنا لوحدي، أعتقد إن دي متطلبات أي ست أو بنت من أي علاقة بتدخلها.. إنها تطمن.

حبيته.. حبيته أوي، وعارفة إنك فاهمة إحساسي دا كويس لإني قريته في عنيكِ وانتِ مع حسن.

ابتسمت بحزن وهززت رأسي لتكمل: سِبت نفسي وبينت له ضعفي قدامه وخوفي من خسارته، وهو ما كذبش خبر، أول ما حس بدا اختفى.

رحيل: يعني إيه اختفى؟

دينيز: اختفى بالمعنى الحرفي للكلمة.. اتبخر، ما أعرفتش عنه أي حاجة تاني.

فجأة بطل يرد على رسايلي وعلى تليفوناتي. جيت على كرامتي وزحت له شغله قلت يمكن أنا عملت حاجة تضايقه، يمكن أكون غلطت. كنت بادوّر على أي حاجة تخليني ما أشوفهوش وحش أوي كدا، بس طلع أوحش بكتير من اللي كنت فاكراه، كان بجح ومؤذي، الاتنين.

وقف قدامي وقال لي بمنتهى البساطة: زهقت.

فجأة قرر ينهي الموضوع مع نفسه ولوحده من غير حتى رسالة علشان الباشا زهق.

بدا الاشمئزاز على وجهي.

دينيز: يقرف مش كدا؟ تخيلي أنا بقى كنت حاسة بإيه؟ تخيلي إن حد يجي يقول لِك إنتِ ملكة، إنتِ ما ينفعش تتحركي غير بطيارة خاصة علشان ياخدك يرميكي من فوق.

عايزاني أثق في حد تاني إزاي؟ آآمن تاني إزاي؟ بلاش، أجيب قلب تاني منين بعد ما لصمت دا بالعافية وهيأته إن دوره الوحيد في الحياة إنه يضخ دم وبس.

الحب دا بقى رفاهية مش من حقي.

رحيل: إنتِ اللي بتقولي كدا؟ إنتِ نسيتِ كلامك ليّا.

دينيز: بالعكس فاكراه كويس أوي، وفاكرة إني شجعتك وما زلت باشجعك إنك تصارحيه علشان مش عايزاكِ تسيبي نفسك لحدوتة إنتِ مش عارفة هتاخدك على فين.

رحيل: بس إنتِ ما ينفعش تفضلي بقية حياتك تحاسبي أي إنسان هيقرب لك على غلط ارتكبه في حقك إنسان تاني.. دينيز سليم شكله بيحبك، سليم إنسان كويس وواضح، متربي وعارف هو عايز إيه.

مش عايزاكي تضيعيه من إيدك، مش سهل تلاقي راجل عارف هو عايز إيه، الأغلب بيبقى ماشي يخبط على القلب اللي يعجبه وزي ما تيجي، يا عرف يسترجل ويكمل يا عمل زي أخينا دا وقال لك

زهقت.

***

في الموعد المحدد لجلسة السمر التي نصنعها لأنفسنا كل ليلة جلسنا جميعًا في دائرة وقررنا أن نلعب لعبة الصراحة، أمسكت أسرار بزجاجة فارغة وحركتها بشكل دائري وتركتها لتستقر.

أسرار: سليم هيسأل ليلى.

ليلى: بلاش أسئلة محرجة.

سليم: من أولها كدا؟ ماشي يا ستي، قولي لنا مين آخر شخص كدبتِ عليه؟ وإيه هي الكدبة؟

ليلى: إيه الإحراج دا؟ أمي؛ هي ما تعرفش إني معاكم، ما كانتش هتوافق، فكان لازم أستنى لحد ما أوصل هنا وبعدين أعترف على نفسي.

ابتسم سليم ومن ثمَّ أشار لأسرار أن تلف الزجاجة مرة أخرى.

أسرار مبتسمة: حسن هيسأل رحيل.

حسن: الله .. دي فرصتي وجات لي.

ابتسمتْ قائلة: مش هاقول لك زي ليلى بلاش أسئلة محرجة علشان عارفة إنك مفتري مش زي سليم.

حسن: يا سلام! كمان مفتري؟ ماشي يا ستي قابلي بقى. قولي سر مخبياه على حد، ومين الحد دا؟!

بدأتْ أرتبك بعض الشيء، هل قد آن أوان مصارحتي له؟! هل هو مدرك بأن إجابة سؤاله ليست سواه؟

كدت أنطق، كدت أخبره أن هو سري الأول والأوحد والأخير، ولكن سرعان ما أوقفت نفسي.

رحيل: مش هاقدر أجاوب.

سليم: دا واضح إنه سر خطير.

حسن: هتجاوبي كدا كدا.

دينيز: ما تسيبوها على راحتها وبلاش رخامة.

ليلى: بالضبط.. احكم عليها الحكم اللي انت عايزه وخلصنا.

حسن: آه إحنا وقعنا في وسط المجلس القومي للمرأة، ماشي. أحكم بإيه؟ أحكم بإيه؟ غني جزء من آخر أغنية سمعتيها.

ابتسمت قائلة: بس أنا صوتي مش حلو.

حسن: ودا حكمي.. نفذي بقى.

ابتسمت وبدأت في غناء أغنية (والله ما طلعت شمس).

رحيل: «وَاللَه ما طَلَعَت شَمسٌ وَلا غَرُبَت

إلّا وحُبُّكَ مَقرونٌ بِأنفاسي

وَلا خلوتُ إلى قَومٍ أُحدِّثهم

إلّا وَأنتَ حَديثي بَينَ جُلّاسي

ولا ذَكَرتكَ مَحزونًا وَلا فَرِحًا

إلّا وَأنت بِقَلبي بَين وِسواسي

ولا هَمَمتُ بِشُرب الماءِ مِن عَطَشٍ

إلّا رَأيتُ خَيالًا مِنكَ في الكَأس

وَلَو قَدَرتُ عَلى الإتيانِ جِئتُكُم

سَعيًا عَلى الوَجهِ أو مَشيًا عَلى الرَأسِ».

حسن: إنتِ عارفة إني باحب القصيدة دي أوي.

رحيل: أنا كمان.

ابتسمت دينيز قائلة: نكمل بقى ولا إيه؟

قامت أسرار بلف الزجاجة مرة أخرى.

أسرار: دينيز هتسأل ليلى.

دينيز: إيه الحاجة اللي بتتمنيها ونفسك تتحقق؟

تنهدت ليلى قليلًا ومن ثم أجابت: نفسي أعيش زي أي إنسانة طبيعية أحب وأتحب، نفسي اختياراتي تبطل تخذلني، وأبطل أدوّر على اللي راح ومش ممكن هيرجع أبدًا.

نفسي ابص لقدام واتشعبط في اي حلم يظهر وينور قدامي فجاة لإني بطلت أحلم بقالي كتير أوي.. بطلت أحلم للدرجة اللي خلتني أنسى يعني إيه حلم.

بدا التأثر على الجميع، وبدأوا ينظرون لها نظرة شفقة.

حاولت ليلى تخفيف الموقف فقالت مازحة: لا باقول لكم إيه؟ إحنا لو وقفنا عند كل سؤال شوية زي دول مش هنخلص.

وقامت هي بلف الزجاجة هذه المرأة.

ليلى: أسرار هتسأل حسن.

أسرار: أهلًا.

حسن: أنا كدا قلقت.

كنوز: حقك.

ضحك الجميع.

أسرار: فيه حد في حياتك دلوقتي؟ ولو فيه فتبقى مين؟

ابتسم ابتسامة تشعرك أنه سيجيب في التو. كنت أكثر المترقبين بالطبع لإجابته، تصارعات ضربات قلبي ولكن كالعادة فاجأنا جميعًا.

حسن: قلتِ لي بقى الحكم إيه؟

أسرار: دا إنت بتستسهل بقى!

حسن: أنا حر يا ستي.

أسرار: إنت اللي هتأكل كل الكلاب لمدة أسبوع.

حسن: شريرة.. شريرة.

أسرار: شكرًا، بعض مما عندكم.

استمرت جلسة السمر هذه لعدة ساعات، خلدنا بعدها جميعًا إلى النوم، لكنني لم أتمكن من ذلك؛ ظل عقلي عالقًا عند السؤال الذي لم يُجبه. كم تمنيت أن أصبح ذات قوة خارقة تجعلني أصل إلى كل ما يدور بعقله! أو بالأخص لإجابة هذا السؤال فقط.

لم أتمكن من إيقاف عقلي، لذا قررت كعادتي أن أكتب له، وبالفعل بدأت في كتابة رسالة جديدة.

(Make you feel my love- adele)

I could hold you for a million years to make you feel my love.بإمكاني أن أضمك لمليون عام، لكي أجعلك تشعر بحبي.

«أنا دايمًا باخاف إن حد يقرب لي، باخاف من أي إيد تلمسني، باتوتر، بس معاك بطلت احس بدا!»

كان نفسي حد يسألني النهاردا ويقول لي:

- تعملي إيه لو عايزة تقولي لحد إنك بتحبيه ومش عارفة؟

كنت هارد من غير تفكير واقول: هاحضنه.

بيني وبينك يعني بقالي كام يوم كل ما اشوفك احس إني عايزة أعمل كدا. خايفة أضعف وأعملها بس من جوايا (باتمنى).

تسير رحيل إلى جوار حسن بعيدًا عن الخيمة ومعهما تانجو وشوربة، وبيد كل منهما محار بحر، ويبدو على رحيل أنها فرحة به للغاية. كانا يتبدلان النظرات فقط دون أن يتحدثا إلى أن لاحظ حسن إنها تهمس للمحارة بشيء.

حسن: بتقولي لها إيه؟

رحيل: لأ دا سر.

حسن: سر عليا؟

رحيل: دا بالذات عليك.

حسن: يبقى سر يخصني.

رحيل: يمكن.. إنت نفسك تخصني!

ابتسم لها حسن مندهاشًا: إيه الخضة دي؟

رحيل: اتعود بقى على كدا.

حسن: بس أنا ما كنتش فاكرك كدا.

رحيل: بجحة تقصد؟

حسن: بالعكس دي جرأة يا ريتها كانت عندي.

رحيل: لو عندك كنت هتقول لي إني عاجباك؟

حسن: مش محتاجة جرأة علشان أقولها.. دي حقيقة وانتِ عارفة.

رحيل: ما هو مش كل اللي نعرفه ما نحبش نسمعه، فيه حاجات لازم تتقال يا أستاذ.

حسن: ما باعرفش أقول.. بس ممكن أسهلها لك. عمرك قابلتِ حد

وحسيتِ إنك لو حضنتيه هتبقي أحسن؟

رحيل: أنا عمري ما قابلتك إلا وحسيت إني عايزة أعمل كدا.

***

استيقظت هذه المرة لأجدني نائمة على كتف حسن، وعلى كتفي شال صوفي كبيرا! انتفضت فزعة إلا أنه سرعان ما تحول خوفي لابتسامة فور تذكري أنني خرجت عقب كتابة رسالة أمس لأجده ما زال مستيقظًا. تسامرنا كثيرًا وجلست إلى جواره بالقرب من المدفأة، ويبدو أنني غفوت.. ولأصبح أكثر صراحة هذا أفضل ما فعلت.

بعد لحظات استيقظ هو أيضًا مبتسمًا.

حسن: صباح الخير.. لاقيتك نمتِ خُفت أقلقك.

رحيل: يعني نمت في الطل كدا بسببي؟! أنا آسفة.

حسن: يا ستي ابقي اعمليها كل يوم ما لكيش دعوة.

ابتسمت فابتسم هو أيضًا، وهنا خرجت أسرار من الخيمة فابتسمت هي الأخرى فور أن رأتنا>

أسرار: مش صباح الخير ولا إيه؟

تحركت إليها خوفًا من أن تتلفظ بأيةِ كلمة كعادتها وأخذتها إلى الداخل.

أسرار: إيه اللي حصل؟

رحيل: نعم! ما حصلش حاجة، غفلت بس وانا وهو بنتكلم وما هانش عليه يصحيني.

أسرار: يا حنيّن.

رحيل: بطلي شغل عيال.

أسرار: لما تبطلي إنتِ وهو شغل الحبّيبة، هابطل أنا شغل العيال.

رحيل: يا شيخة اقعدي بقى، حبيبة إيه؟ دا أبو الهول هينطق قبل منه، دا مفقود فيه الأمل.

***

كان يومًا عاصفًا للغاية، لذا قضينا أكثر من منتصفه بداخل الخيمة، خرجنا فقط بعد أن حل الظلام وهدأت العواصف على غير العادة، فدائمًا ما تزداد بالليل.

أعددنا مشروبات ساخنة لنا جميعًا وجلسنا نتسامر كعادتنا، ليس هناك أحد لم يلَحظ التقارب السريع الذي حدث بين دينيز وسليم، وخاصة بعد إصابة مساء أمس التي لحقت بقدم سليم وقلق دينيز عليه، وبالطبع لم تترك أسرار ذلك دون أن تعقب عليه، بعد أن وضعت دينيز وسادة أسفل قدمه لكي يجلس مستريحًا.

أسرار: والله يا سليم كان نفسنا نعمل لك أي حاجة، بس دينيز مش مدية لحد فرصة والله.

بدا الخجل على وجه دينيز، بينما غمرت الفرحة وجه سليم.

سليم: كتر خيرك يا أسرار.

لكمتها في يدها قائلة بصوتٍ منخفض: إنتِ لسانك دا إيه؟ ما بيسكتش!

أسرار: أعيا.. إنتِ عارفة.

رحيل: هتقولي لي؟

ابتسمت ونظرت إلى حسن الذي وجدته شارِدًا، فناديته بصوتٍ مسموع جعله ينظر باتجاهي.

حسن: إيه يا رحيل؟

رحيل: اللي واخد عقلك.

سليم: بتحب جديد ولا إيه يا سِحس؟

ارتبكتُ بعض الشيء ولكن لم تضع أسرار الفرصة.

أسرار: فعلًا! طيب ومش ناوي تقول لنا مين بقى ولا إيه؟

ارتبكتُ أكثر وبدا الخجل على وجهي حتى صدمنا حسن بالرد: حب إيه وكلام فارغ إيه بس يا جماعة؟! أنا لسا عندي حاجات كتير أوي في حياتي عايز أعملها، فاسمحوا لي بقى أخيب ظنكم وأقول لكم إني لسا ما نويتش أدوَر على حاجة تعطلني!

وكأنه صفعني بعدة أقلام أفقدتني النطق تمامًا. حاولت جاهدة السيطرة علي دموعي وتحججت بشيءٍ حقًا لا أذكره واتجهت بعيدًا.. بعيدًا إلى حيث لا أعلم، ووجدت أسرار إلى جواري كما تفعل دائمًا.

أسرار: باقول لك إيه؟ ما تركزيش مع كلامه، دا مجنون! هو حد جه جنبه؟ والله دا ربنا نجدك، دا واحد مش عارف هو عايز إيه، هيوجع قلبك.

أكملت في طريقي مبتعدة ولم أعطِ لحديث أسرار أي اهتمام، فسارت إلى جواري وبعد قليل من الوقت أدركت أنني لست بحاجة

لأي شيءٍ الآن سوى الصمت، وفجأة لم أتمكن من السيطرة على نفسي، جلست على الأرض أبكي بشدة. احتضنتني أسرار وحاولت تهدأتي حتى فوجئنا بدراجة تقودها فتاة في العشرين من عمرها أوشكت أن تصطدم بنا.

أسرار: مش تفتحي؟

أوقفت الفتاة الدراجة ووقفت إلى جوارنا قائلة: يعني مش انتوا اللي قاعدين في نص الطريق؟! لأ، أنا اللي أفتح. ماشي يا ستي.

نظرت لي ويبدو أنها شعرت بأن هناك شيئًا ما.

شيتوس: إنتِ كويسة؟

رحيل: الحمد لله.

وفجأة وجدت الفتاة تنظر لي بدهشة شديدة تلتها ابتسامة، وبدأت في النطق بجمل غير مكتملة تنم عن فرحتها الشديدة.

شيتوس: غفران! معقول؟ إنتِ هنا بجد؟ أنا مش مصدقة نفسي، كنتِ تجنني، الفيلم حلو اوي بجد.

أنا شيتوس.. ممكن آخد صورة معاكِ؟

ابتلعت ما علق بحلقي، ونهضت ناظرة لأسرار لتشاركني محاولة إدراك ما يحدث.

رحيل: أنا آسفة يا حبيبتي، أنا ما اعرفش مين غفران اللي بتتكلمي عليها.

شيتوس: ما تحاوليش، إنتِ فاكرة إنك علشان قصيتِ شعرك يعني مش هاعرفك؟ دا أنا دخلت الفيلم خمس مرات، تحبي أسمع لك

الحوار؟

رحيل: يا حبيبتي أنا مش غفران، وما اعرفش مين غفران دي، أنا رحيل.

ابتسمت شيتوس وهزت رأسها، وتحدث مرة أخرى بنبرة مبالغة شديدة: والله أنا قلت الموهبة دي كان لازم تبقى موجودة في جيل العظماء، أيام أستاذ أحمد زكي، وأستاذ نور الشريف الله يرحمهم، هما اللي كانوا بيتقمصوا الدور لحد ما يصدقوه.

هنا تغيرت ملامح أسرار تمامًا وكأنها أدركت شيئًا لم أدركه.

أسرار: تمام.. حضرتك عايزة إيه دلوقتي؟

شيتوس: أتصور مع الفنانة طبعًا.

رحيل: بردو هتقول فنانة!

شيتوس: وست الفن كله.

أسرار: اتصوري معاها يا رحيل وخلصينا.

بدا على شيتوس أيضًا أنها أدركت شيئًا.

شيتوس: بس هم مش قالوا إنك مختفية؟ ولا دي كانت لعبة بقى علشان تعملي دعايا للفيلم؟

رحيل: هو إيه الجنان دا؟ فيلم إيه؟

شيتوس: فيلم رحيل.. فيلمك.

هنا بدأت تتزاحم الأفكار في عقلي، وفجأة قفزت إلى رأسي الأحلام التي كانت دائمًا ما تتكرر، غفران، الفيلم، التصوير، أسرار،

وما تقوله هذه الفتاة الآن.. ما الذي يحدث؟!

حاولت أسرار جاهدة أن تنهي هذا الموقف مع الفتاة بأسرع وقت، وبالفعل تمكنت من ذلك، لكنها لم تتمكن من إنهاء هذا الموقف معي أنا!

رحيل: يعني إيه اللي هي قالته دا؟ مين غفران؟! وإزاي فيه فيلم اسمه رحيل، إزاي غفران ورحيل؟ وإزاي شبهي؟ إنتِ فاهمة حاجة؟

بدا الارتباك على وجه أسرار لكنها حاولت أن تسيطر عليه.

أسرار: دي بت هبلة، إنتِ هتصدقيها ولا إيه؟ تلاقيها مخيمة في أي مكان قريب من هنا وسمعت اسمك صدفة وحد فينا بينادي عليكِ فقالت تشتغلنا.

رحيل: عرفت اسمي صدفة! طيب وعرفت اسم غفران كمان صدفة؟ فيه حاجة غلط.

أسرار: هو إنتِ غاوية توجعي دماغك؟ مش كفاية اللي إنتِ فيه؟ قولي لي إنتِ ناوية علي إيه مع حسن؟

***

عدنا إلى الخيمة لنجد أن الجميع قد خلد إلى النوم، فاتجهت مع أسرار إلى الخيمة بعد أن تظاهرت بأنني أخرجت حديث شيتوس من رأسي، ولن أنكر أنني حاولت فعل ذلك، لكنني لم أستطع أبدًا، فمن المستحيل أن تجتمع كل هذه الصدف في آنٍ واحد، من المستحيل أن يصبح حلمًا من أحلامي واقعًا يحياه أحدهم.

أمسكت بهاتفي وبدأت في البحث عن غفران بطلة الفيلم الذي يحمل اسم «رحيل.. اسمي! بالكاد توصلت إلى بعض المعلومات،

علمت أنها فتاة في السادسة والعشرين من عمرها، حفيدة رجل ثري للغاية، وتعد هي وريثته الوحيدة، اختفت في ظروف يجهلها الجميع في نفس اليوم الذي أنهت فيه تصوير الفيلم منذ قرابة عام.. والآن وبعد النجاح الذي حققه الفيلم فور عرضه أصبحت هي حديث مواقع التواصل الاجتماعي والأخبار، خاصة بعد أن فقد جدها بكامل نفوذه الوصول إليها منذ عام.

أشعل أيضًا مواقع التواصل ظهور هذا الرجل في أحد برامج التوك شو المعروفة بعد عرض الفيلم.. تحدث عن علاقته بها، طلب منها على الهواء مباشرةً أن تسامحه إن شاهدت هذا اللقاء في يوم ما، طلب منها العودة ووعدها بالتغيير، لذا توقع الجميع أن يكون هو السبب وراء اختفائِها، واستبعدوا أيضًا فكرة أن تكون خطفت أو قتلت، فالجميع الآن يؤكد أنها هربت من سوء معاملة هذا الرجل، الأمر الذي شجع بعض المخالطين لها من بعيد على الحديث، الحديث الذي صب جميعه في إناءٍ واحد، وهو أن هذا الرجل كان أقسى بكثير من أن تتحمله فتاة في رقتها.

ما قرأته جعل عقلي أشبه بلوح خشبي، أريد أن أبكي ولا أعرف لمَ؟ ثمة مشاعر كثيرة تسيطر علي الآن ولا أعي أيًا منها! نظرت إلى أسرار فبدا لي أنها نائمة، فاتجهت إلى خارج الخيمة وجلست أمام المدفئة لا أحرك ساكنًا، فأنا حقًا لا أعي أي شيء. ما أنقذني من كل أفكاري هذه أنني وجدت حسن يقترب مني كما يفعل دائمًا، يأتي في أكثر أوقاتي ضعفًا ليصبح هو ضعفي الأكبر.

حسن: إنتِ كويسة؟

هنا فقط استسلمت للشيء الوحيد الذي جاء من داخلي حينها،

وألقيت بنفسي بين ذراعيه، وانفجرت في البكاء.

ربما تعجب في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما ضمني هو الآخر إليه وحاول تهدأتي، حاول أن يعرف السبب ولكن لم أجبه أبدًا، أغمضت عينيّ وضممته أكثر.

لا أعرف أين ذهب خجلي الآن؟ ربما رحل مع عقلي قبل قليل!

استمر هذا الوضع لدقائق ومن ثم أنهيته بـ«آسفة.

حسن: على إيه بس؟ بردو مش هتقولي لي مالك؟

رحيل: إنت آخر حد ممكن يسألني السؤال دا يا حسن.

حسن: أنا؟

رحيل: طبعًا.. إنت ملخبطني أكتر من أي حاجة تانية. يمكن لو كنت مرتاحة كنت شاركتك كل اللي تاعبني من غير ما أفكر للحظة إنك هتقول عليّا مجنونة.

أنا لما جيت.. كنت عايزة أرمي كل اللي ملخبطني وتاعبني في حجرك بس ما قدرتش! إنت أصلًا ما ادتليش فرصة! دايمًا بتحطني في وضع يخليني أقول أنا فين في حياته؟ وتخيل عمري ما لقيت إجابة.

حسن: رحيل إنتِ....

لحظات من الصمت.

رحيل: ما أنا قلت لك أنا عمري ما لقيت إجابة، وغالبًا كدا مش هالاقي. بس أنا مش هاحرم نفسي من كل إحساس كان نفسي أحسه معاك، مش هتنازل عن وضوحي وصراحتي ومشاعري اللي

عمري ما اتكسفت منها واسكت زي كل مرة.

إنت جبان يا حسن!

جبان وأنا مش هاساعدك تخليني شبهك.

أنا باحبك.. عارفة إنك عارف، بس أنا كنت محتاجة أقولها علشان ما اندمش زيك.

آه ما ندمك عليا دا مش هيكون مفاجأة، هاستنى اليوم اللي تفهمها فيه، أنا بأكد لك دا من دلوقتي.. والمرة دي غرور مش بس ثقة.

واتجهت بأقصى سرعة لديّ مع دموعي إلى الخيمة لأجد مفاجأة أكبر بكثير من صمت حسن.. دخلت لأجد أسرار ممسكة بأجندة غريبة الشكل مكتوب عليها من الخارج (رحيل/ غفران).

أسرار: إنتِ قلتِ لي يوم ما أحس إن حياتك هنا بقت أصعب من هناك ألحقك، رحيل إنتِ لازم ترجعي. دا مش مكانك.

رحيل: أرجع فين؟

وهنا بدأت أسرار تسرد الحكاية كما بدأت منذ قرابة عام ونصف.

فلاش باك:

نرى رحيل بقصة شعر وملابس مختلفة عن شكلها الحالي -تمامًا كغفران في حلم رحيل الأول- تشرب كوبًا من القهوة في حديقة قصر كبير، وبيدها سيناريو فيلم بعنوان «رحيل»، يبدو أنها انتهت من قراءته للتو. بعد لحظات تضعه جانبًا، بينما على وجهها ابتسامة تنم عن الحماس الشديد، تمسك هاتفها المحمول وتقوم بعمل اتصال تليفوني لرقم مسجل على الهاتف باسم «أسرار.

غفران (رحيل): أستاذة أسرار إزيك عاملة إيه؟ أنا لسا مخلصة السيناريو دلوقتي حالًا، بجد يجنن، أنا مش عارفة أقول لك إيه إنك فكرتِ فيا في دور زي دا وأنا لسا باقول يا هادي.

أنا عايزة أشوفك في أسرع وقت، لازم نتكلم، إنتِ مش متخيلة أنا متحمسة إزاي.. خلاص تمام النهاردا على الساعة ٥ كويس؟

أوك. See you, bye.

أنهت غفران المكالمة وعلى وجهها نفس الابتسامة حتى جاء من خلفها رجل كبير في السن، تبدو الهيبة على هيئته.. تخيفك عيناه فور أن يقترب منك، اقترب من غفران دون أن تلاحظه وعلى وجهه علامات الغضب الشديد.

أكمل: إنتِ لسا مُصرة على اللي في دماغك دا بردو؟

انتفضت غفران من على الكرسي، واضعة بسرعة رهيبة شالًا كانت ترتديه فوق السيناريو.

غفران: جدوا! هو حضرتك ما سافرتش؟

أكمل: جاوبي على سؤالي! إنتِ بردو مصرة على اللي في دماغك؟

غفران بنبرة يتمكن منها الخوف: في إيه بس؟

أكمل: إنتِ رُحتِ عملتِ كاستنج في مكتب من بتوع بير السلم؟ فاكرة إني كدا مش هاعرف مثلًا؟ إنتِ النفس اللي بتتنفسيه بيوصلني.

تنفست غفران الصعداء لظنها أنه عرف شيئًا آخر، ولكن سرعان ما انقلبت راحتها هذه إلى غضب.

غفران: جدو أنا زهقت، تعبت، اللي حضرتك بتعمله دا مش خوف دا خنقة! خنقة صدقني. أنا باحاول بقالي سنين إني أتحملها ومش عارفة.

إنت بتزودها عليّا يوم ورا التاني وأنا ما بقيتش قادرة أستحمل، أنا كبرت وما بقيتش حتة العيلة الصغيرة اللي هتفضل تقول لها تعمل إيه وما تعملش إيه.

أنا باحب التمثيل ودي الحاجة اللي مش هتقدر تمنعني عنها.

أكمل: لأ هامنعك، وطول ما أنا شايفك ماشية في طريق في نهايته أذية ليكي هامنعك.

غفران: ما دي المشكلة، المشكلة إنك شايف إن كل حاجة في الكون بتأذيني، مع إن أنا ما حدش أذاني قدك!

غفران ما تقربيش من فلان أنا سمعت إنه مش كويس، بس أنا ما شُفتش منه أي حاجة وحشة يا جدو، أنا قلت اللي عندي دا أمر مش طلب.

غفران هتدخلي بزنس علشان تمسكي معايا الشغل، يا جدو أنا عايزة أقدم في المعهد أنا باحب التمثيل. معهد إيه ولعب عيال إيه؟ ما فيش تمثيل.. هتدخلي بزنس دا أمر مش طلب!

غفران هتتخطبي لفلان، بس أنا ما بحبوش يا جدو، مش مهم تحبيه المهم إن مصلحتي معاه، ومصلحتي هي مصلحتك دا أمر مش طلب.

جدو أنا تعبت، أنا ما بقيتش قادرة على كم الأوامر اللي لازم أقول بعدها سمعًا وطاعة، إنت كنت هتجوزني إنسان ما بحبوش لولا

إنه طلع عنده دم وحس واختار يبعد، هو اللي اختار يبعد علشان يريحني!

أنا الغريب حس بيا وانت حتى ما بتحاولش!

هو لما كل مشروع أدخله توقفه لي إنت كدا بتحميني؟ ولا لما بتمنعني من دخول الورش ومكاتب الكاستنج والشركات وتحرمني من الحاجة الوحيدة اللي باحبها إنت كدا بتحميني؟!

لما بتحسسني إني فاشلة وما ليش أي نجاحات إنت كدا بتحميني؟! لما بتبعد كل الناس عني وتخليني وحيدة من غير لا أصحاب ولا حد أحبه ويحبني إنت كدا بتحميني؟! كدا إنت بتعوضني عن موت أبويا وأمي؟!

جدو أنا اليُتم اللي عيشته معاك أكتر من اللي كنت هاعيشه لو كنت لوحدي! أنا مش هاقدر أسامحك على إحساسي دا أبدًا.

***

في الساعة الخامسة كانت غفران تجلس أمام أسرار التي لم تتغير كثيرًا عن الوقت الحالي، ومن ثم انضم إليهما بعد قليل من الوقت مخرج العمل.

غفران: طب ليه أنا؟

أسرار: أكيد ما كانتش صدفة إن إحنا الاتنين نتفق عليكِ.

رامز: أنا مقدر خوفك ومقدر إن دي أول مرة هتقفي فيها قدام الكاميرا.. بس حقيقي إحنا الاتنين شفنا فيكِ اللي ما شُفناهوش من نجمات بتمثل بقالها سنين.. إنتِ أبهرتينا كلنا في الأوديشن يا غفران، وبعدين حد يطول فرصة زي دي؟! دي بطولة مطلقة.

غفران: هو الحقيقة إن مش كل دا اللي مخوفني، بالعكس دي فرصة أنا بادوّر عليها بقالي سنين، وكنت بادعي ربنا كل يوم إنها تحصل.. بس أنا فيه حاجة لازم أقولها لكم ومترددة بصراحة، أنا ما اعرفش إنتِ تعرفي المعلومة دي ولا لأ، بس أنا حفيدة أكمل المنشاوي. تعرفيه؟

أسرار: ومين ما يعرفوش؟ بس إيه علاقة دا بخوفك؟!

غفران: هاحكي لك.

وهنا بدأت غفران في سرد قصتها مع جدها منذ أن توفي والديها، ومعارضته لها في كافة الأشياء، ضغطه العصبي عليها، وعدم إيمانه بها.. وأخيرًا رفضه التام لأي مشروع يتعلق بالفن تضع فيه قدمًا للدرجة التي تجعله قد يدمر الفكرة من أساسها.

غفران: أنا عارفة إن دي فرصة بالنسبة لي، بس ثقتكم فيّا تخليني ما أذيش المشروع مهما كنت عايزاه.

بدت الحيرة على وجه أسرار ورامز.. واستمر الصمت لدقائق أدركت بعدها غفران أن حتى هذه الفرصة قد ذهبت عنها، حتى فاجأتها أسرار بالرد الذي فاجأ رامز أيضًا.

أسرار: مش مهم، إنتِ بردو اللي هتعملي الدور. رامز هو منتج الفيلم، وأعتقد أن بإيده يمنع نشر أي حاجة تخصك لحد ما نخلص تصوير.

رامز: طب وبعد التصوير؟ مع إن التصوير دا مش حاجة سهلة، بس هافترض إنه عدا، هنعمل إيه بقى وقت العرض؟ إحنا كدا هنبقى بنرمي تعبنا كله في الأرض.

جاهدث أسرار لكي تتمكن من إقناع رامز الذي بالكاد وافق في النهاية، ومن ثم بدأ الجميع في تحضير كل شيءٍ في سريةٍ تامة. كانت غفران تتفنن يوميًا في الهروب من المراقبة التي كان يفرضها عليها جدها، بل حاولت أيضًا إرضاءه بعض الشيء بإقناعه بأنها ستذهب للعمل معه فور انتهائها من بعض الدورات التدريبية التي تخص عملهما، وبالفعل قامت بحجز هذه الدورات وحضور بعض منها لكي تجعله يطمئن، وهذا ما حدث رويدًا رويدًا، فعقب أن تظاهرت هي بالاستسلام والخضوع لتعليماته بشكلٍ كامل، بدأ حصاره لها يقل تدريجيًا حتى أنه أوشك على الاختفاء، وبدأت تمارس حياتها بشكلٍ يشبه كثيرًا الطبيعي.

وبينما يحدث كل هذا كانت علاقتها هي وأسرار تقترب أكثر فأكثر، فكان يطلق عليهما البعض «التوأم.. حتى جاء اليوم الذي قررت أسرار أن تصارح غفران بسر هو الأهم في حياتها على الإطلاق.

أسرار: الفيلم.

غفران: ما لُه؟

لم تنطق أسرار وبدا على وجهها التردد.

غفران: هو جدو عمل حاجة؟

أسرار: خالص.. الموضوع ما لوش أي علاقة بجدك.

غفران: طب إيه بقى؟ الفيلم ما لُه؟

أسرار: قصة الفيلم حقيقية يا غفران.

بدت الدهشة على وجه غفران، ومن ثم تلاشت وحلت محلها الابتسامة.

قالت غفران ضاحكة: ما تقوليش إن حدوتة الحب دي حدوتك. إزاي ما تحكي ليش حاجة زي دي؟ قولي لي بقى اسمه إيه؟

أسرار: مش قصة الحب يا غفران.. أنا باتكلم عن التجربة.

غفران: تجربة إيه؟!

أسرار: التحكم في الذكريات.

غفران: إنتِ بتقولي إيه؟ إيه الجنان دا؟!

أسرار: أرجوكِ ما تخلنيش أندم إني قلت لك، أنا عمري ما وثقت إن أحكي لحد الموضوع دا علشان كنت واثقة إني مش هتصدق، أنا عملت الفيلم علشان أتصدق وبس!

غفران: أنا مش فاهمة أي حاجة.

أسرار: هافهمك.

وبدأت أسرار في سرد الحدوتة كاملة لغفران التي كان اندهاشها يزداد لحظة بعد أخرى، فكيف يصل الإنسان لاختراعٍ يجعله يتمكن بضغط ذرٍ واحد التحكم في ماضيه ومستقبله، وحذف كل ما لا يرغب به وإضافة ما يريده للأبد؟!

أسرار: طبعًا التجربة مش زي الفيلم بالضبط، هي بس بتعتمد على حذف فترة معينة من حياتك أو حياتك كلها والاحتفاظ بجزء معين إنتِ اللي بتحدديه، دا غير إن في بعض الذكريات ممكن بالممارسة تحفظيها في مخك علشان تبدأي بها حياتك الجديدة علشان ما تبقاش فاضية وتحسي إنك في عمر العشرين بس بذكريات وتجارب طفل لسا بيحبي. أنا أبويا قضى عمره كله وهو بيحاول يطوّر

التجربة دي يوم بعد التاني.. لحد ما قدر في النهاية يوصل بالعافية لإن الفترة ما تتحذفش حذف نهائي، بمعنى إن حتى لو أخدتِ القرار وقررتِ تحذفي حياتك السابقة كلها وتبدأي حياة جديدة هيفضل موجود نسخة احتياطية من كل اللي اتحذف تقدري ترجعي لها في أي وقت.. بس دا مش مسموح إنه يحصل غير مرة واحدة بس، بعد كدا المخ ممكن ينهار.

أنا عارفة إن كلامي ممكن يبقى صعب عليكِ لإنه كان صعب عليَّا أنا كمان إني أستوعبه، بس دا تعب أبويا وسنين عمره، كان لازم أعمل أي حاجة تخليه يتصدق لإن ما حدش في العالم كله آمن به وصدقه غيري.. أنا ما فيش حاجة باعرف أعملها في حياتي غير الكتابة، وعلشان كدا كتبت الفيلم، قلت يمكن لو الفيلم نجح تكون دي المادة اللي أستغلها وأنشر فكرة التجربة.

أنا بقى لي فترة باقول لنفسي أنا خايفة أموت أو يجرى لي حاجة، ما ينفعش أفضل شايلة سر زي دا لوحدي، علشان كدا اخترت إني أشاركك.

قاطعتها غفران قائلة: أنا عايزة أجرب.

أسرار بدهشة: بلاش جنان، دي مش لعبة يا غفران، دا غير إني ما أقدرش أأذيكي بحاجة أنا مش عارفة حتى نتيجتها هتكون إيه؟

غفران: إنتِ ما جربتيش دا على أي حد؟

أسرار بتردد: ما كانش ينفع.. ما فيش إنسان يقدر بسهولة إنه يتنازل عن كل مشاعره وذكرياته ويختار إنه يبدأ كل حاجة ومن الأول.

غفران: بس أنا محتاجة دا.. أنا محتاجة أمشي من هنا يا أسرار، محتاجة يبقى عندي حياة جديدة وناس جديدة أنا اللي أختارهم وما أبقاش مجبرة عليهم.

أسرار: غفران انسي.. دا استحالة هيحصل.

صمتت للحظات وابتسمت ومن ثم أكملت: إنتِ عارفة إيه أجمل ما في طلبك دا؟

غفران: إيه؟

أسرار: اتأكدت إني اخترت صح، لما كنت واثقة إنك هتصدقيني.

وقامت باحتضانها.

أصبحت علاقة أسرار وغفران أقرب بعد هذا الموقف مما كانت عليه، بل بدأتا تتشاركان أفكارًا كثيرة بخصوص هذه التجربة، حتى جاء اليوم الذي بدأ أكمل الضغط على غفران مرة أخرى بشأن الزواج، بل ورغمًا عنها أعلن خطبتها على عريس جديد، الأمر الذي أدى إلى انهيارها بشكلٍ تام.

أسرار: ممكن تهدي؟!

غفران: هو ليه بيعمل كدا؟! ليه مُصر يكرهني فيه ليه؟! أسرار أرجوكِ أرجوكِ ساعديني.

أسرار: أساعدك إزاي؟ قولي لي أقدر أعمل إيه وأنا أعمله.

غفران: التجربة.

وبعد ضغط من غفران استسلمت أسرار إلى مطلبها واتفقتا على فعل ذلك، ولكن بعد الانتهاء من تصوير الفيلم بشكلٍ نهائي.

أسرار: بس إحنا لازم نسافر سانيتا.

غفران: فين؟

أسرار: بلدي وبلد أبويا، دا المكان الوحيد اللي هتقدري تعيشي وتبدأي فيه من غير ما حد يدور وراكِ ولا يعرفك، واستحالة إيد جدك توصلها.

غفران: للدرجة دي؟

أسرار: وأكتر.. سانتيا عالم تاني، له قواعده وقوانينه اللي مش تابعه لأي حاجة غير لمجمع بيضمها هي ومجموعة قرى تانية، وبالمناسبة من هنا لهناك مش أقل من ١٥ ساعة سفر، وما فيش طيران.

بدا القلق على وجه غفران.

أسرار: ما تتخضيش أوي كدا، إنتِ هناك هتلاقي الراحة اللي نفسك فيها، أهل البلد ناس طيبين هيحبوكي وهتحبيهم، دا غير إنها مش بلد معدومة زي ما دماغك جابتك، إنتِ هتلاقي هناك كل حاجة بتلاقيها هنا. الفرق الوحيد إنها مقفولة على نفسها وعلى البلاد اللي حواليها.

غفران: طب وأنا إزاي هاعيش وسطهم وأنا لا أعرفهم ولا يعرفوني؟

أسرار: علشان كدا باقول لك إحنا لازم نسافر، لازم نخلق لك ذكريات هناك تكمل معاكِ، وكمان لازم نلاقي لك اسم وتاخدي عليه.. بمجرد ما نوصل هناك لازم تحاولي تنسي إنك غفران، اعتبري نفسك طفلة لسا بتكتشف كل حاجة حواليها وأولهم نفسها.

غفران: رحيل .. دا أكتر اسم أنا باتنده به دلوقتي، وافتكر إني هاخد عليه بسهولة.

صمتت وكأنها أدركت شيئًا: بس طبعًا ما ينفعش علشان الفيلم لو نزل.. إنتِ بتقولي الناس هناك عندهم كل حاجة وأكيد بيتسخدموا سوشيال ميديا عادي. اكيد مش صدفة إن البنت اللي في الفيلم تكون على اسمي وكمان شبهي!

أعطت أسرار ضهرها لغفران كأنها تحاول إخفاء شيء.

أسرار: أنا رأيي إنها مش هتفرق.. خلينا في اسم رحيل، أنا شايفة إنه كمان لايق عليكِ.

غفران: أسرار إنتِ مخبية عليّا حاجة؟ يعني إيه مش هتفرق؟

أسرار: يعني جدك عرف يا غفران.. أو بمعنى أصح هو كان عارف وغفلنا كلنا، راح لرامز من يومين وقال له إنه سايبنا نلعب، بس الفيلم دا مش هيشوف النور.

أخذت غفران الصدمة هذه أيضًا بصدرٍ رحب وكأنها كانت تؤكد لنفسها أن قرارها لم يكن خاطئًا ولو بنسبة صغيرة.

وبعد عدة أيام كانت غفران وأسرار في منزل أسرار بسانتيا.. والآن يتناولان طعام الفطور معًا بعد مرور أول أسبوع لهما في البلدة.

غفران: المكان حلو أوي بجد، كل يوم باكتشف هنا حاجة جديدة. باقول لك إيه؟ هو أنا ينفع أطلع أقعد قدام البحر شوية؟

أسرار: ينفع طبعًا، أنا عايزاكِ تحفظي البلد شبر شبر وتحفظي كمان الناس اللي فيها، بس خلي بالك، إنتِ مش كل الناس لسا عارفاكِ،

واللي يعرفك منهم عارف إنك بنت خالتي اللي كانت برة مصر ولسا راجعة.. أرجوكِ اتعاملي ع الأساس دا، أنا مش حابة أبقى معاكِ في كل خطوة، حابة إنك تكتشفي كل شيء ولوحدك.

فور أن وصلت غفران إلى البحر قامت بخلع حذائها وحملته في يدها وأكملت سيرها على الرمال حافية القدمين مستمتعة بما ترى.

دقائق وهبت عاصفة شديدة تلتها عاصفة أخرى وتوالت من بعدها عواصف عدة، الأمر الذي أجبر غفران على ارتداء حذائها والعودة إلى المنزل، وبينما هي في طريق عودتها للمنزل فوجئت بأمطارٍ شديدة. حاولت في بادئ الأمر أن تسير رغمًا عنها، وبعد لحظات كسر حذاءها، فوقفت تزفر من الغضب، إلى أن اقترب منها العم غانم.

غانم: ما تزعليش أوي كدا، المطر خير.

غفران: أنا مش زعلانة، بالعكس أنا باحب المطر، بس ما بحبش المفاجآت، ما كنتش عاملة حسابي.

غانم: وهو المطر في بلاد برة كان بيستأذن قبل ما ينزل ولا إيه؟

ضحكت غفران رغمًا عنها، فابتسم العم غانم.

غانم: حمد الله على سلامتك يا بنتي، نورتي البلد.

غفران: الله يسلمك.

غانم: أنا عمك غانم. باقول لك إيه أنا المحل بتاعي خطوتين من هنا، تعالي أعمل لك حاجة سخنة تشربيها لحد ما الجو يهدا، وبعدين ابقي روحي، ما يصحش تفضلي واقفة كدا.

غفران: ربنا يخليك يا عم غانم، أنا لازم أروَح، أسرار هاتقلق عليَا.

غانم: كلميها في التليفون، وقولي لها عم غانم بس وهي هتطمن، يلَا ما تناهدنيش.

واتجهت غفران مع العم غانم إلى محله الخاص، هاتفت أسرار التي اطمأنت إلى وجودها مع العم غانم وحذرتها من الوقوع في الحديث معه نظرًا لفطنته الشديدة وذكائِه.

أعدَّ العم غانم لكل منهما مشروبًا ساخنًا وجلسا إلى جوار مدفأة المحل يتسامران، بدا الارتياح على وجه غفران له، فأخذت تستمع له باهتمامٍ بالغ. أخذ يحدثها عن خبايا هذه القرية والأساطير التي ينعم بها جميع أرجائها. حدثها أيضًا عن علاقته بزوجته رحمها الله، وكيف كان يعشقها. استمر الحديث لساعاتٍ طويلة حتى بعد أن انتهى المطر.

غفران: ياه أنا اتأخرت أوي، قعدتك ما يتشبعش منها يا راجل يا طيب. أنا لازم هاجي تاني ما تزهقش إنت بس.

غانم: غبي مين دا اللي يزهق من قعدتك؟! أنا هاجي معاكِ.

غفران: أبدًا والله، أنا عارفة الطريق كويس، كتر خيرك قوي بجد، دا انت حتى جزمتي صلحتها. تصبح على خير.

ودعته غفران وداعًا يليق بالراحةِ التي شعرت بها معه، كم تمنت أن يكون جدها على قدرٍ من التفاهم كالعم غانم، كم تمنت أن ينظر لما يأتي من داخلها لا من فمها.. كم تمنت أن تشعر ولو مرة واحدة أنه حقًّا كان يحبها.. وكم تمنت أن يأتي اليوم الذي لن تفكر فيه في كل هذا ويصبح هذا الرجل في حياتها كأن لم يكن.

وصلت إلى المنزل، لتجد أسرار في انتظارها. روت لها ما حدث مع غانم، وكم أحبته، ومن ثمّ تناولا طعام العشاء وخلدت غفران إلى النوم.

استمر الوضع كما هو لعدة أيام تعرفت خلالها غفران على أغلب من بالقرية، عرفت سكانها، وعادتها كما لو أنها معهم منذ سنوات. ساعدها في ذلك بالطبع سخطها من جدها الذي كان دائمًا ما يعنفها فور اقترابها من أي شخص، الآن هي تقترب من الجميع والجميع يقترب منها.

اعتادت أيضًا غفران على الذهاب إلى مكتبة القرية، حيث اكتشفت جانبًا جديدًا منها، وهي أنها تهدأ كثيرًا إن عبرت عما بداخلها بالكتابة، وعرفت أن أولى الخطوات لأن تصبح كاتبًا جيدًا أن تقرأ كثيرًا.

أحبت المكتبة وصارت جزءًا من يومها، إلى أن تعرفت إلى حسن الذي انضم لسكان القرية وزوار المكتبة منذ عدة أيام.

في البداية تبادلا الكتب، فالنقاشات، فالطموحات، فكل شيء.

وصارت المكتبة مكانها المفضل بالكتب وحسن!

***

في صباح أحد الأيام، كانت تجلس غفران في المكتبة تقرأ كتابًا، ودخل علي حاملًا كرتونة كبيرة بها عدد كبير من الكتب، أخذ يساعده نضال مشرف المكتبة في إفراغها. في البداية لم يلَحظ وجود غفران، ولكن بعد لحظات التفت لها.

حسن: رحيل، إزيك عاملة إيه؟ شكلك هنا من بدري.

غفران: من أول ما المكتبة فتحت تقريبًا؛ عندي فضول أخلص الكتب اللي قلتِ لي عليها. أهو يمكن أعرف أغلبك في الكلام زي ما دايمًا بتغلبني.

ابتسم حسن قائلًا: دا أنا بردو؟

غفران: أيوة طبعًا.. أنا مش قادرة أستوعب إنك قريت كل دا.

حسن: يا ستي، ما أنا قلت لك كل ما هتقسّمي وقتك صح كل ما هتقدري تستغليه صح.. ودا مش معناه إنك تخلي القراية هي اللي واخدة الجزء الأكبر من وقتك. أنا عن نفسي زي ما بقرأ باعمل حاجات كتير أوي، باسمع مزيكا وبالعب مزيكا، طول الوقت باتفرج على حاجات مختلفة، مش مهم إنها تعجبني، بس أكيد فيه جزء منها هيخلي دماغي تشتغل.

وهنا اقترب نضال وأخبر حسن أنه انتهى من إفراغ الكتب ويريد أن يأخذه لإنهاء إجراءات تسليمها للمكتبة، فأخبره حسن أنه سيلحق به بعض لحظات.

غفران: مش صعبانين عليك؟ أنا مش متخيلة إنك ضحيت بهم بالسهولة دي.

حسن: بالعكس، أنا كدا باحافظ عليهم. لما يبقوا في مخي ومخك ومخ عشرة كمان تانيين على الأقل؛ أبقى حافظت عليهم. الرف مش هينفعهم في حاجة.

نظرت له غفران نظرة إعجاب، سرعان ما أخفته وحاولت تغيير الموضوع.

غفران: طيب اتفضل، اختار لي كتاب جديد أقرأه، بس المرة دي

بقى من كتبك إنت.

ابتسم حسن واتجه إلى الكتب التي أفرغها من الكرتونة وإلى جواره غفران تنظر له في براءة وإعجاب.

***

تجلس غفران وإلى جوارها أسرار يتبادلان الحديث وفي يد كل منهما كوبًا من الشاي.

غفران: بس فيه حتة تناكة كدا بتخليني عايزة أذي له على دماغه.

ضحكت أسرار قائلة: يا بنتي يعني هو كويس ولا تنك؟

غفران: بصي هو مكس غريب كدا، أحيانًا تحسيه لطيف أوي، وساعات تحسي إنه رخم بردو أوي، ممكن يدخل في مرة يسلم عليا بحرارة تحسسني إننا عارفين بعض من سنين، ومرة تانية ولا كإنه شايفني.

أسرار: ما يمكن يكون مش واخد باله.

غفران: يا بنتي عيني بتبقى في عينه. هو غريب ومش مفهوم، كل يوم بحال، بس كدا كدا مش فارق لي، المهم إنه مش مؤذي.

أسرار: لأ واضح إنه فعلًا مش فارق لك، اتكلمتِ عنه ٥٨٠ مرة بس لحد دلوقتي.

غفران: يمكن علشان مختلف، ويمكن علشان دي الدماغ اللي بتعجبني، أنا ما بحبش الناس السهلة وانتِ عارفة، وهو مش سهل خالص، دايمًا كلامه بيخليني أشغّل دماغي، أحاول أفهم هو كان يقصد إيه، وفي نفس الوقت بيكون على وشه face بريء يخليني

أقول استحالة إنه يكون بالذكاء دا! دماغه عاجباني وردوده عاجباني أكتر.

أسرار: ممم، لأ دا شكل الموضوع كبير.

غفران: لأ باقول لك إيه دماغك ما تروحش بعيد، إنتِ عارفاني، هو لو كان عاجبني بالصورة اللي إنتِ بتتكلمي عليها كان زماني مش عارفة أنطق معاه بحرف.. أنا شايفة إنه ممكن يبقى صديق لذيذ أكتر من كدا ما أظنش؛ أنا النوع دا يتعبني، ما فيش راجل لسانه حلو ما بيتعبش، دا غير بقى إن عم غانم محذرني منه من قبل ما اشوفه، هو صحيح ما قالش في حقه حاجة وحشة، بس قال لي إنه حط الكل في جيبه في يومين ودا يقلق. خلينا في اللي احنا فيه.

أسرار: ماشي يا ستي. قولي لي جهزتِ حاجتك خلاص؟

غفران: من بدري.. إحنا هنتحرك أكيد بكرة؟

أسرار: لو ما اتحركناش مع المركب دي هنضطر نستنى عشر أيام كمان للمركب اللي بعدها، وانتِ عندك تصوير كمان يومين.

غفران مبتسمة بحزن: أنا مستغربة إن رامز لسا مُصر يخسر.

أسرار: بالعكس، هو بيحاول ينقذ ما يمكن إنقاذه، فاكر إنه لو ما قدرش يعرض هنا فهو يقدر يعرض برة، عقله جايبه على كدا، وفي كل الأحوال إحنا التزمنا معاه بكلمة خلينا نكون قدها،

واعملي حسابك بقى إن من بعد اليوم دا إنتِ هترجعي هنا رسميًا وفعليًا وداخليًا وانتِ رحيل.. غفران مش هيبقى لها وجود تاني خلاص حتى بالنسبة لك.

***

عودة إلى الحاضر.

أسرار: والباقي إنتِ عارفاه.

لم أنطق بحرف، كانت الدموع تتساقط من عيني رغمًا عني، تمنيت لو أن كل ما سمعت ما هو إلا حلم من أحلامي الغريبة التي سأستيقظ منها بعد قليل من الوقت!

ضربت بيدي على رأسي عدة ضربات لعلني أستيقظ ولكن يبدو أن ما سمعت حقًا بالفعل هو واقع أحياه!

رحيل باكية: وليه قررتِ بقى تقولي لي؟

أسرار: علشان دا كان اتفاقنا، إني لو شُفتك مش مرتاحة في حياتك هنا، أو لو حسيت إن فيه أمل إن جدك يتغير إني أحكي لك وأسيبك إنتِ اللي تاخدي القرار، وبتهيأ لي ما فيش إثبات إن جدك اتغير أكبر من إنه ساب الفيلم ينزل. أنا شُفت الحلقة وصدقته، دا غير إني باشوفك كل يوم أتعس من اللي قبله، وشايفة إن مشاعرك تجاه حسن بقت مؤذية أكتر بكتير من ضغط جدك عليكى.

أنا مش هاقول لك آسفة علشان أنا واثقة إنك عارفة إني عمري ما عملت أي حاجة تأذيكي، ولو ما كنتيش ضغطتِ عليا إننا نعمل كدا، كان زماننا في القاهرة بنفكر في حاجة جديدة نعملها تهذي جدك عليكِ.

غفران ارجعي لحياتك، ارجعي لجدك، اختاري بعقلك المرة دي مش بمشاعرك، حسن مؤذي بتردده وجبنه وما أظنش إنه هيتغير.. حسن مش شخص هيفهم ويقدر في يوم من الأيام النعمة اللي ربنا بعتها له وهو اللي رماها بإيده.

فنظرتُ لها نظرة سرعان ما أدركت معناها.

أسرار: ما تبصي ليش كدا، أنا عارفة إني نفس الشخص اللي شجعك على الحدوتة دي من الأول، ويمكن دا يكون هو اللي تاعبني وواجعني دلوقتي.. علشان لأول مرة كنت أعمل حاجة من غير ما أفكر إنها كان ممكن تأذيكي.. غصب عني شُفتكم لايقين على بعض، كنت فاكراكِ هتكوني مبسوطة وسعيدة، كنت فاكرة إنه الشخص اللي ربنا بعته علشان يعوضك عن كل اللي شُفتيه.. بس آسفة أنا كنت غلطانة، ولأول مرة هاقولها لك حسن ما يستهلكيش ولا يستاهل مشاعرك يا غفران.

رحيل: تفتكري أنا عملت إيه غلط علشان أتعاقب عليه بالشكل دا سواء بقى كنت غفران أو رحيل؟ ليه حسن ما حبنيش؟ وليه جدي ما عرفش يحبني زي ما كان المفروض يحبني؟!

ليه أنا قابلته؟ ليه ظهر في طريقي؟ ليه قرب مني؟!

ليه كل دا حصل؟

أنا عارفة نفسي، أنا مش الشخص اللي يتعلق بطيف حاجة مش ملموسة، مش مالي إيده منها!

ضحكت ضحكة عالية ومن ثم أكملت: طب أنا ليه كنت مصدقة إن فيه حاجة؟ ليه كنت واثقة إن فيه حاجة؟ ليه مشيت ورا إحساس كداب؟ ليه ما اِستنيتش أتأكد وليه هو ما وقفنيش؟! ليه حاجات كتير أوي.

وفجأة انفجرت في البكاء، وجلست أسرار إلى جواري تحاول تهدأتي، لم أستمع لأي كلمة خرجت من فمها حينها، ولم أشعر حتى

باحتضانها لي، حواسي جميعًا وقفت عند جملة واحدة: حب إيه وكلام فارغ إيه بس يا جماعة؟ أنا لسا عندي حاجات كتير أوي في حياتي عايز أعملها. اسمحوا لي بقى أخيب ظنكم وأقول لكم إني لسا ما ناويتش أدوّر على حاجة تعطلني.

امسكت براسي كانني بذلك امنعها من ان تتردد مرة اخرى، بكيت، انهرت.. ولكن دون جدوى، لم يتغير شيء، لم يأتِ وينتشلني من كل هذا. استمر هذا لصباح اليوم التالي دون أن أنطق بكلمة واحدة.. حتى توصلت إلى قراري النهائي الذي قد يريحني من كل هذا.

رحيل: رجعيني غفران.. مشيني من هنا.

التفتت لي أسرار وكأنها لم تتوقع أن يكون هذا قراري.

رحيل: مش إنتِ تقدري تعملي دا واحنا هنا؟

أسرار: أقدر بس إنتِ واثقة من قرارك دا؟

رحيل: جدًا، أرجوكِ تخلصيني.

أسرار: بس إحنا محتاجين نفكّر إنتِ هتمشي من هنا إزاي، كل اللي هنا عارفين رحيل بس إنتِ ساعتها لا هتبقي عارفة رحيل ولا فاكرة اللي هي عاشته.

رحيل: مش فاهمة حاجة، أنا تُهت.

أسرار: يعني ببساطة، إنتِ هترجع لك تاني كل ذكريات غفران اللي انتِ مش فاكراها دلوقتي، واللي انتهت بنهاية آخر يوم تصوير، هترجع لك حياتك مع جدك وذكرياتنا القديمة، خطيبك الأولاني، الفيلم بكل تفاصيله، التجربة بكل اللي حكيتهولك عنها، الفترة اللي قضتيها في سنتيا وانتِ غفران، يعني من الآخر انتِ كل اللي

هيفضلك من رحيل.. هو انه اسم أول فيلم لعبتِ بطولته وبس.. وجودك هنا مش هتستوعبيه بسهولة، ولا هتستوعبي مين دول، علشان كدا لازم نشوف طريقة سريعة تتحركي بها، أما بالنسبة لحسن فكل اللي هيفضل منه حبة الانجذاب اللي حسيتهم في بداية معرفتك به وبس (كفففران). مشاعر رحيل اللي كبرت معاكِ دي هتتبخر تمامًا.

رحيل: وأنا مش عايزة أكتر من كدا، أنا أصلًا أزمة بالنسبة لي إنه هيفضل لي منه حبة اللطف اللي كنت حساهم وقتها. انتِ ما تقدريش تمحيه تمامًا؟

أسرار: صعب.. إحنا خلصنا كل محاولاتنا الخاصة بالتعديلات، دلوقتي ما فيش قدامنا أي اختيار غير إني أرجع لك ذكرياتك القديمة، وساعتها للأسف هتفضلي فاكرة الفترة اللي قضتيها في سانتيا وانتِ غفران، علشان كدا لازم نتحرك من هنا على طول لو هنعمل دا.

ضحكت بصوتٍ مرتفع ودموعي ما زالت تتساقط قائلة: هي ميزة بردو إني ما أكملش هنا بعد ما أرجع غفران، علشان بكل وضوح وصراحة أنا ما بقاش عندي ثقة في قلبي. أخاف أقع في حبه تاني.

ابتسمت أسرار في حزن: أنا عرفت إحنا ممكن نعمل إيه. أنا هاكلم جدك هاقول له إنك معايا وهاطلب منه يبعت لنا طيارة خاصة، وأظن إنه يقدر يعمل كدا بمنتهى السهولة، بس قبل كل دا هاعيد تاني السؤال عليكِ وهافضل أعيده: إنتِ متأكدة إن دا قرارك؟

رحيل: أنا ما بقيتش متأكدة من حاجة تانية يا أسرار، أنا حاسة إني في فيلم، باحاول أستوعب اللي إنتِ بتقوليه وأكمل اللعبة،

دلوقتي ما بقاش بإيدي أي حاجة غير إني ألعب.

حركت أسرار يدها على كتفي، ومن ثمَّ أخذت هاتفها وقامت بالاتصال بجدي. جاءني صوته من خلال مكبر الصوت لكنني لم أشعر بشيء، وكأنني أسمع هذا الصوت للمرة الأولى، لكن ثمة رعشة ما أصابت جسدي فور أن سمعته يبكي بعد معرفته أنني ما زلت على قيد الحياة. وَعَدها أن يرسل الطائرة على الفور وأغلق، وبعد دقائق أعاد الاتصال بها وأخبرها أن الطائرة ستصل إلينا خلال ساعات.

أخبرتني أسرار أننا يجب أن نبدأ في الخطوات سريعًا حتى يكون كل شيءٍ قد انتهى عند هذا الوقت، وفي هذه اللحظة أخبرتني أسرار أنها لن تأتي معي.

رحيل: ليه يا أسرار؟

أسرار: دي آخر حاجة أنا وصلت لها علشان مصلحتك. لازم شخص يفسر لكل الناس اللي هنا سبب اختفائِك وسبب الطيارة اللي هتيجي. لازم أمنع أي رد فعل غريب من أي حد، وخصوصًا حسن، وأحميكي من إنه يوصل لك.

رحيل: طيب خلاص نأجل دا لحد ما نرجع القاهرة، أنا ممكن أمشي من هنا وأنا لسا رحيل.

ضحكتُ بحزنٍ متنهدة: حلوة وأنا لسا رحيل دي!

أسرار: مش هتقدري. الحاجة الوحيدة اللي هتساعدك تمشي من هنا إن ما يبقالوش وجود في قلبك، علشان كدا لو هنعمل دا يبقى لازم قبل ما تسافري.. وما تقلقيش أنا هاخلّص كل الديول دي وارجع

على القاهرة، أكيد مش هاسيبك.

رحيل: أنا واثقة.. قبل ما نبدأ بس فيه حاجة لازم أعملها.

اتجهت بجوار شنطتي الخاصة، أحضرت الرسائل والدفتر.

رحيل: هاكتب آخر رسالة.

حركت أسرار رأسها في حزن، أما أنا فجلست على فراشي وبدأت في الكتابة:

(سلام- سعاد ماسي).

«وأنا هامشي من سكات وباودع أملي فيك».

دي آخر رسالة هاكتبها لك، ولأول مرة أبقى واثقة إنك هتقرأ اللي أنا هاكتبه، واللي أنا بعد دقايق من دلوقتي مش هابقى فاكراه ولا هابقى فاكرة مشاعري اللي كانت بتكبر جوايا يوم ورا التاني، كبيري هافتكر حبة اللطف اللي كانوا في الأول، واللي بيتهيأ لي إني حبيتك بسببهم، مبسوطة إني بعد دقايق مش هافتكر جُبنك ولا هافتكر إني عملت معاك اللي عمري ما كنت أتخيل إني في يوم من الأيام هاعمله.

«أنا تقريبًا مشيت أشوف وشك بخير».

أنا اخترت الأغنية الوحيدة اللي كانت بتنط في دماغي كل مرة كنت باسيبك فيها وبامشي. على قد ما كنت واثقة إني هاشوفك تاني يوم، على قد ما كان دايمًا حاجة بتيجي وتقول لي: عمرك ما هتبقي معاه.

«يا سنين عمري وبقيتها اللي أنا ما عشتهاش».

فيه حاجات كتير أوي كان نفسي أعيشها معاك، مش هاتكلم عنها علشان دي كتير أوي، بس كان نفسي يخيب ظني فيك ويجي اليوم اللي أقرا فيه أنا وانتِ الرسايل دي سوا.

كان نفسي ما تخذلنيش يا حسن!

«إنت وأنا باختصار بيننا ما فيش اتفاق.. جوانا فيه انكسار.. برانا فيه كبرياء مع إننا من الفراق ما احناش طالعين سلام».

أنا وانت دايمًا كنا اتنين ماشيين عكس بعض، واحد خايف كاشش مش عارف هو عايز إيه، كان عايز كل حاجة فما أظنش إن هيجي اليوم اللي يطول فيه أي حاجة.

وواحدة قوية باللي كان في قلبها وما كانتش عايزة من الدنيا دي كلها غيره.. أنا آسفة إني أقول لك إني بعد دقايق من دلوقتي مشاعري دي كلها هتتبخر، مش هيفضل منها غير طيف جاي من بعيد، أتمنى من قلبي إني ما افضلش هنا الوقت اللي يخليني أقع في حبك مرة تانية لإنك شاطر وتعملها.

أتمنى إن المرة دي يبقى جوايا القوة اللي تخليني أختار إني ما أبصش في عينك وأدوس على كلام الست وأقول: وان كنت أقدر أحب تاني.. فأنا عمري ما أحبك انت.

«سلام وأنا هامشي من سكات».

أنهيت كتابة الرسالة التي أظن أنني ختمتها بما تبقى من دموعي التي أوشكت أن تجف من كثرتها، وأمسكت بجميع رسائلي ووضعتهم في مظروف كبير، كتبت عليه من الخارج بخط عريض:

إلى حبيبي: (الشكر الفر).

كتبتها مبتسمة رغمًا عني، ومن ثمّ مددت يدي بالمظروف إلى أسرار.

رحيل: بيتهيأ لي بعد ما أمشي من هنا، هيبقى من حقه يعرف أنا كنت شايلة له إيه، مش علشان أندّمه عليا لإن ساعتها مش هيفرق لي ندمه في حاجة، بس علشان يفهم لمرة واحدة إن مش كل حاجة دايمًا بتمشي زي ما هو عايز.. ومش كل حاجة بردو بتمشي لوحدها.. ما فيش حدوتة من غير أبطال، وما فيش حياة هتكمل من غير موقف.. المحايدة شيء لطيف بس في المشاعر بتكون مزعجة، الحب ما بيخوّفش بس بضعفك بتحوله لوحش، لو اتمكن منك هيخليك إنسان جبان مؤذي لنفسك وللي حواليه.

قولي لحسن إنه يتحب، قولي له كمان إني كنت باحبه أوي، بس علشان يصدق دا لازم يحب هو نفسه الأول، ويبطل يدعي القوة اللي مش جواه.

***

في نفس الوقت الذي كانت فيه أسرار إلى جوار رحيل موشكة على الانتهاء من خطوات عودتها لحياتها مرة أخرى، كان سليم يتحدث مع حسن الذي كان يبدو تائهًا بعض الشيء.

سليم: ما حسيتش بنفسي غير وأنا باقول لها: بحبك.

حسن: بالسرعة دي؟

سليم: وليه أصعّبها عليّا وعليها، وأضيّع من عمري وعمرها سنين علشان حبة خوف ما لهمش لازمة، وهاجس بيقول لي إنها مش حاسة بيّا؟ آديني اعتبرتها محاولة ويا صابت يا خابت، واكتشفت

إني كنت هابقى مغفل كبير لو ما عملتش كدا.

الوقت بيجري يا حسن، وفيه حاجات كتير أنا كنت واثق إني هاندم لو ما عيشتهاش معاها هي بالذات، الدنيا مش دايمًا بتدي لك فرصتين إنك تعيشها، فيه حاجات بتيجي في العمر مرة وانت وذكاءك بقى.

***

أسرار: دي آخر خطوة. إنتِ واثقة إنك عايزة تعملي كدا؟ إنتِ عارفة إن ما فيش تاني رجوع.

هززت رأسي مبتسمة بحزن: عارفة.. وجاهزة، وقبل ما يحصل دا حابة أقول لك إنك كنتِ مكسبي الوحيد من الرحلة دي، علشان كدا أرجوكي ما تسيبنيش.. أنا بعد شوية مش هاكون فاكرة أغلب ذكرياتنا، بس أنا واثقة إننا هنتجمع من تاني وهنعمل ذكريات أغلى وأجمل من دي بكتير.. على الأقل ما فيهاش حسن ولا فيها وجعي منه.

أنا قلبي واجعني أوي يا أسرار، لو بتحبيني خلصيني، على الأقل وجعي من جدي اللي مش فاكراه كان زي ما بتقولي السبب فيه إنه بيحبني.. إنما حسن ما عندوش سبب، وحتى لو كان في يوم فعلًا حبني فهو ما عملش بالكلمة اللي ما قالهاش.

تنهدت ومن ثم أكملت: أنا جاهزة.

***

حسن: إيه الصوت دا؟

سليم: هيكون إيه يعني؟ طيارة من اللي كل يوم بتعدي من على

دماغنا.

حسن: بس دا صوتها قريب أوي.

سليم: أهو راح.. المهم ركز معايا إنت نويت على إيه؟

حسن: مش عارف.

سليم: أنا خايف تندم يا حسن.

استمر الصمت للحظات، ومن ثمَّ انتفض من مكانه وخرج من الخيمة بشكلٍ عشوائيٍ كأن النداهة قد ندهته، ليجد أمامه أجمل مشهد لرحيل الشمس من جهة الغرب.. ورحيل من نوع آخر من الشرق!

جاءت عينه على رحيل التي أخذت تلوح لأسرار بيدها، بينما توشك أن تتحرك بها الطائرة التي هي على متنها الآن وإلى جوارها تانجو!

حاول حسن استيعاب ما يحدث ولم يستطع، تبادل هو ورحيل النظرات من بعيد، لكنها لم تُعطِه من الاهتمام إلا بسيطًا، فقد كانت منشغلة بوداع صديقتها التي كانت تحترق من البكاء، وبين يديها مظروف الرسائل.

وحين اقترب حسن من إدراك الموقف وتحرك في اتجاه الطائرة، فوجئ بتحليقها ليودعها بنظرة تقول: هناك شيء لن أعوضه أبدًا قد رحل عني الآن.

يا حكاية أما ابتديتها نزل فصل الختام.

سلام.

تمت

«فيه ناس بتعدي كدا من بعيد لبعيد، تعمل شوية طراوة، وبعدين خلاص».

دي جملة قالتها الست حياة في فيلم «في شقة مصر الجديدة»؛ حسيتها قوي وصدقتها،

لإن فعلًا ممكن في يوم من الأيام يعدي عليك إحساس صعب قوي إنك توصفه، أقورة إنك تقول عليه حب، وظلم لجماله إنك تحطه على رف الإعجاب، علشان كدا ممكن نقول عليه «طراوة.

من قلبي شكرًا لحبة الطراوة اللي كانوا السبب في إن الرواية دي تكمل.

آية محمود يحيى

حَبيبي سُكَّر مُر

أغلقتُ الرسالة لأجد هذا اليوم يمر سريعًا أمام عينيّ، أتذكر خجلي منه حينها، خوفي من أن يرى في عينيّ كل هذا، هروبي المستمر منه، ولجوئي دائمًا لأي مكانٍ قد لا يراني فيه أو أراه، وكلما هربت منه أجده أمامي، لدرجةٍ جعلتني أظن أنني كنت أزعم الهرب منه لأجده.

ربما جسدي يهرب وروحي تبحث وتأخذني أينما ذهب!

في هذا اليوم قررتُ التخلص من عبء ما زاد وفاض بداخلي، قررتُ أن أتحدث مع أسرار، ولكن سرعان ما تراجعت؛ لم أرغب في أن أجعل من مشاعري قصة أتسامر بها أنا وصديقتي، مشاعري التي أتجاهلها إلى الآن، لم أرغب في أن أصدقها وتصدقها هي أيضًا. ربما شعوري هذا ما هو إلا شيء عابر سينتهي خلال أيام ويصبح غريبًا كما كان.

ومن هنا أتت من داخلي فكرة الرسائل التي أظنها لن تُرسل أبدًا.

كما قلت سابقًا من هنا بدأ كل شيء.